من أهم أعمال

تشارلز ديكنز
الآمال الكبرى

أسامة عبد الرحمن

مقدمة

توقعات عظيمة أو توقعات كبرى هي رواية لتشارلز ديكنز نشرت لأول مرة مسلسلة بدأ من عام ١٨٦٠ م، ثم نشرت كاملة في ١٨٦١ م تعد من أحسن أعمال ديكنز وواحدة من أكثر رواياته شعبية، وتم تجسيدها على المسرح والشاشة أكثر من ٢٥٠ مرة.

تتبع الرواية نمط الرواية التكوينية، حيث يتتبع الكاتب قصة رجل أو أمراة في سعيها للنضج، عادة من مرحلة الطفولة وحتى تبلغ أشدها وتتحدث الآمال الكبرى عن قصة بيب الطفل اليتيم، من طفولته المبكرة وحتى بلوغه ومحاولته لإدراك النبل أثناء مسيرته تلك وتجري أحداثها من عشية عيد الميلاد عام ١٨١٢ م، عندما كان بطل القصة في السابعة من عمره، وحتى شتاء١٨٤٠ م ويمكن اعتبار الرواية قصة شبه ذاتية للكاتب، على غرار الكثير من أعماله.

نشرت الراوية لأول مرة مسلسلة في مجلة على مدار العام البريطانية من ١ ديسمبر١٨٦٠ إلى أغسطس١٨٦١ م وقد نُشر في كل مرة فصلين من القصة، وكان المؤلف يترك قرائه متشوقين لمعرفة ما سيأتي ولكنه في نفس الوقت يرضي فضوله ونشرت الرواية كاملة لأول مرة في يوليو ١٨٦١ م.

ولأن من أفضل الطرق التى من الممكن تحسين المستوى في اللغة الإنجليزية هي قراءة روايات عربي – انجليزي بمعنى أن الصفحة اليمين مثلاً تكون باللغة العربية والصفحة مقابلها هي نفس الصفحة ولكن باللغة الإنجليزية.

فقد كتبت ترجمتها باللغتين العربية والانجليزية معاً لامكان تحسين مستوى شبابنا في لغة من أوسع لغات العالم انتشاراً في الوقت الراهن.

أسامة عبد الرحمن

نبذة عن المؤلف

ولد تشارلز جون هوفام ديكنز في لاندبورتبورتسي في جنوب إنجلترا عام ١٨١٢ ملأبوين هما جون وإليزابيث ديكنز وكان ثاني أخوته الثمانية، وعاش طفولة بائسة لأن أباه كان يعمل في وظيفة متواضعه ويعول أسره كبيرة العدد لهذا اضطر إلى السلف والدين ولم يستطع السداد فدخل السجن، لهذا اضطر لترك المدرسة وهو صغير وألحقه أهله بعمل شاق بأجر قليل حتى يشارك في نفقة الأسرة، وكانت تجارب هذه الطفولة التعسة ذات تأثير في نفسه فتركت انطباعات إنسانية عميقة في حسه والتي انعكست بالتالي على أعماله فيما بعد.

وقد كتب تشارلز عن هذه الانطباعات والتجارب المريرة التي مر بها في أثناء طفولته في العديد من قصصه ورواياته التي ألفها عن أبطال من الأطفال الصغار الذين عانوا كثيرا وذاقوا العذاب ألوانا وعاشوا في ضياع تام بسبب الظروف الاجتماعية الصعبة التي كانت سائدة في إنجلترا في عصره، ونجد أن شخصيته الرائعة تجلت بوضوح فنجده بالرغم من المشقة التي كان يعاني منها في طفولته إلا أنه كان يستغل أوقات فراغه من العمل الشاق، فينكب على القراءة والاطلاع على الكتب كما كان يحرص على التجول وحيدا في الأحياء الفقيرة بمدينة الضباب المصنوع لندن

حيث يعيش الناس حياة بائسة مريعة وخارجة عن القانون في بعض الأحيان وكان قد تأثر بالقوانين الليبرالية في عصره فوصف بيوت العمل التي نشأت وفق قانون الفقراء الإنجليزي لسنة ١٨٣٤ في روايته الشهيرة أوليفر توست وفي العديد من القصص والروايات التي كانت من إبداعاته وصف ديكنز هذه الأحياء الفقيرة بكل تفاصيلها وبكل المآسي التي تدور فيها، وعندما وصل إلى سن العشرين تمكنت الأسرة أخيرا من إلحاقه بأحد المدارس ليكمل تعليمهوفي نفس الوقت كان يعمل مراسلا لأحدى الجرائد المحلية الصغيرة لقاء أجر طفيف أيضا ، ولكنه لم يهتم بالأجر فلقد تفانى في هذا العمل الصحفي الذي كان بمثابة أولى خطواته لتحقيق أحلامه فقد كان بمثابة تمرين له على حرفة الأدب، ولقد أتاح له هذا العمل الصحفي أن يتأمل أحوال الناس على مختلف مستوياتهم الاجتماعية والأخلاقية فخرج بالعديد من التجارب الإنسانية والأخلاقية التي وسعت آفاقه ومداركه الأدبية والحياتية.

نشر ديكنز ما يزيد عن اثنتي عشرة رواية مهمة، وعدداً كبيراً من القصص القصيرة من ضمنها عدد من القصص التي تدور حول ثيمة عيد الميلاد وعدداً من المسرحيات، كما أنه كتب كتباً غير خيالية روايات ديكنز نُشرت مسلسلة في البداية في مجلات أسبوعية أو شهرية، ثم أعيدت طباعتها في هيئة كتب وفي سن الرابعة والعشرين بالتحديد في عام ١٨٣٦

أصدر ديكنز أولى رواياته الأدبية وكانت بعنوان مذكرات بيكويك ولاقت نجاحا ساحقا بالفعل وجعلته من أكثر الأدباء الإنجليز شعبية وشهرة، ثم ازدادت شهرته في إنجلترا وخارجها عندما توالت أعماله في العالم بلغات مختلفةومن أشهر رواياته التي اشتهرت عالمياً وتُرجمت لعدة لغات عالمية ونشرت عام ١٨٦١م هي رواية (الآمال العظيمةوأصبحت محط أنظار السينمائيين ليصنعوا منها أكثر من ٢٥٠ عمل مسرحي وتلفزيوني.

إمتازت أعماله بتصوير الواقع بشكل يجذب بها القارئ كما أنه يوصف الشخصيات بدقة شديدة ,كما أنه يصف جميع الطبقات الإجتماعية ويعبر عن العواطف المختلفة كالأسى والألم والحزن

له إثني عشر رواية مهمة كانت سبب الشهرة التي نالها وعدد كبير من القصص والمسرحيات الخيالية أول رواية له كتبها وعمره أربع وعشرون عاماً بعنوان مذكرات بيكويك وحققت شعبية وشهرة كبيرة وزاد من شهرتها ترجمتها لعدد من اللغات ،كان في العديد من أعمالة يدعو إلى الإصلاح الإجتماعي وتدعيم الأعمال والمؤسسات الخيرية خصوصًا أنه عاش في عصر كانت فيه الأحوال في غاية الفقر،له عدد كبيرمن المؤلفات منها:- أوراق بيكويك - مغامرات أوليفرتويست– حياة ومغامرات نيكولاس نيكلباي– متجرالفضول القديم -بارنابيرودج -أنشودة عيد الميلاد – موسيقى الأجراس - فرقع لوز المدفأة - معركة الحياة - الرجل المسكون - صفقة الشبح

التر جمة إلى العربية:

ظهرت عدة ترجمات للرواية غالبا مااختلفت في تعريبها للعنوان فقد نشرت ترجمة الرواية تحت عنواين: الآمال الكبيرة (دارأسامة ١٩٩١،ودار ومكتبةالهلال ،والمكتبة الحديثة للطباعة والنشر)،والآمال الكبرى(دارالأسرة٢٠٠١،الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣)،وآمال عظيمة (الأهلية للنشر والتوزيع ٢٠٠٥).

خلال أحداثها ارهاصات الثورة الفرنسية والأحداث التى تلتها من الهجوم على سجن الباستيل والمدينتان هنا هما باريس ولندن في نفس الفترة ويقارن في المشهد الافتتاحي بين الأحوال في باريس ونقيضها في لندن، وقد استلهم ديكنز مصدره من رواية الكاتب توماس كارلايل الثورة الفرنسية .

انتجت هذه الرواية للسينما والتليفزيون حوالي ١٣ مره تتناول الرواية قصة الدكتور ألكساندر مانيت الذي يسجن لمدة ١٨ سنة في سجن الباستيل ظلماً وابنته لوسي مانيت التي يقع في غرامها رجلين ، تشارلز دارني المنحدر من أصول أرستقراطية فرنسية وسيدني كارتون المحامي الإنجليزي اللذان يشبهان بعضهما البعض ويضحي أحدهما بحياته من أجلها ويتزوجها الآخرومن أبرز الشخصيات في الرواية شخصية مدام ديفارج الثورية التي تحقد على عائلة دارني الأرستقراطية لما فعلته بعائلتها في الماضي.

وفاته:

في عام ١٨٧٠ مات تشارلز ديكنز عن عمر ٥٨ عاما بعد أن ترك للإنسانية هذا الكم الهائل من الكنوز الأدبية، ودفن في مدافن وست مينستر أبي.

الفصل الأول مقابلة بين المقابر

عشت معظم السنوات الأولى من حياتي في مقاطعة كنت ، ومع ذلك فان مستنقعاتها الموحشة مازالت تخيفني حتى الآن فقد كنت أتخيل وجود أشباح تتلاعب في أطباق الضباب الكثيف ، كما أتخيل سماع أصوات غريبة صادرة من تدفق المياه في مجرى النهر المجاور وعندما كنت في السابعة من عمرى وفي عشية عيد الميلاد ، ذهبت لزيارة قبر أبي وأمى الذي يقع بساحة واسعة ملحقة بالكنيسة وفي مكان يطل على مستنقعات موحشة في الحقيقة لم أشاهد أبي ولا أمى مطلقاً ولكني أستطيع قراءة اسميهما المكتوبين على شاهد القبر : فيليب وجورجيانا بيروب فيليب ، كان اسم أبي واسمي أنا أيضاً ولكن عندما كنت أتعلم النطق في طفولتي المبكرة ، كنت لا أستطيع نطق هذا الأسم نطقاً صحيحا وانما كنت أنطقه هكذا : بيب ، وهو الاسم الذي ظل يطلق على طوال حياتي .

وفى أثناء تلك الزيارة لقبر والدي ، حاولت أن أتذكر أي شي عنهما فلم أستطع لذلك انهمرت الدموع من عيني وبدأت في البكاء وعلى حين فجاة سمعت صوتاً مخيفاً مرعباً يصيح بى : اسكت توقف عن هذا الضجيج والا قطعت رقبتك

Chapter I Interview between the graves

I lived most of the early years of my life in Kent County yet its swampy swamps still scare me so far. I imagined ghosts manipulating the thick fog dishes, and I imagined hearing strange sounds coming out of the flow of water in the nearby riverbed when I was seven years old and On the eve of Christmas, I went to visit the tomb of my father and mother, which is located in a large square attached to the church and in a place overlooking the marshy swamps. In fact, I never saw my father or mother, but I can read their names written on the tombstone: Philip and Georgianna Byrop Philippe. When I used to learn pronunciation in my early childhood. I could not pronounce that name correctly, but I used to say it like this: Pep, the name that has been called all my life.

During that visit to my father's grave, I tried to remember anything about them. I could not tear away from my eyes and started to cry. Suddenly I heard a terrifying scary sound shouting: "Stop, stop this noise, or cut your neck!

وظهر أمامي رجل عملاق خرج من بين المقابر ، وأمسكني من ذقني بقبضته الحديدية كان يرتدي ملابس خشنة رمادية اللون ويحيط بقدمه طوق حديدى كانت، ملابسه مبتلة ويرتعش جسمه الملطخ بالطين من شدة البرد وأخذ يحملق في بعينين يتطاير منهما الشرر فقلت له وانا ارتجف من شدة الرعب : أتوسل اليك باسيدى لا تقتلني أرجوك وسالني الرجل : ما اسمك ؟ أجب بسرعة.
وأين تعيش ومن هم أهلك ؟!

فقلت على الفور : اسمى ، بيب ، ووالداى مدفونان في هذه القبور وأنا أعيش مع أختى مسز جو جارجرى ، وزوجها الحداد الذي يعمل في هذه القرية فقال الرجل وهو ينظر إلى القيد الحديدي المربوط بقدمه : هه حداد ؟!

وفي لمح البصر ، أمسكنى بقوة ، وقلبنى رأساً على عقب ، وأفرغ كل ما في جيوبي ولم يكن معى سوى بعض المسامير وكسرة صغيرة من الخبز ثم اجلسني على شاهد حجري لأحد المقابر وأخذ يلتهم كسرة الخبز ويبتلعها في نهم شديد وبعد أن انتهى من ذلك ، هزني بقوة وقال : والآن أيها الوغد الصغير هل تعرف المبرد ، الحديدى ؟

فأومات له برأسى موافقا ، لأني كنت عاجزا عن الكلام من شدة الرعب

A giant man came out from among the graves and grabbed my chin with his iron fist. He was dressed in gray gray clothes. He was surrounded by an iron collar. His clothes were wet and his muddy body shivered from the cold and he stared at the eyes with sparks flying from them. I beg you, do not kill me please and ask me the man: What is your name? Answer quickly.

Where do you live and who are your family ?

I said immediately: My name, Bib and my parents are buried in these graves. I live with my sister Ms Joe Gargeri, and her husband, the mourning man who works in this village, and the man looks at the iron constraint tied to his foot: Hada Haddad?

I sat down on a stone witness of one of the graves and took the crumbs of bread and swallowed them in a severe scorn. After he finished, he gave me a loud hug. He said: Now you little villain do you know the radiator, iron?

I have my head in my head, because I was unable to speak with horror

وقال : اذن عليك احضار مبرد حديد واحضار بعض الطعام عليك باحضارهما إلى هنا في صباح الغد فاهم ؟!وأخذت أبلع ريقي بصعوبة وقلت له وانا الهث حاضر يا سيدى.

- واياك ان تخبر أحداً بذلك وإلا لقتلناك فوراً فأنا أعرف صديقاً لى يهوى قتل الأولاد وتمزيق قلوبهم فقد تظن أنك ستكون آمناً وتنام في سريرك مطمئناً ولكن صديقى هذا قادر على التسلل إلى غرفة نومك الدافئة ليقتلك في لحظة تذكر هذا جيداً هيا انصرف الآن ٠٠!

وأومأت برأسي إليه موافقاً على كل ما قاله وقفزت على الفور وأنا لا أصدق نجاتي وأخذ بيب يتلقى الأوامر أجرى بأقصى سرعة في اتجاه البيت وكان قلبي يدق عالياً لدرجة أني كنت أسمع دقاته .

ولكن في البيت كانت تنتظرنى متاعب أخرى فبينما كنت أتسلل على أطراف قدمى متجهاً إلى المطبخ، شاهدنى زوج أختى الحداد جور فهز رأسه الأشقر وسالني : اين كنت يا بيب ، أن اختك قد خرجت البحث عنك وفي هذه اللحظة انفتح الباب بعنف ودخلت أختي وهي في قمة الغضب كانت أختى مسز جوه تكبرني بنحو عشرين سنة ، وكانت حادة الطباع جداً وبدون أن تنطق كلمة

He said, "Then you have to bring a iron cooler and bring some food. Bring them here tomorrow morning.

- I want you to tell someone to do this or else to kill you immediately I know a friend who loves to kill children and tear their hearts You think you will be safe and sleep in your bed reassuringly but this friend is able to sneak into your warm bedroom to kill you.

I nodded my head in agreement with everything he said and jumped immediately and I can not believe my survival. And when Pep received the orders, he ran as fast as I could in the direction of the house, and my heart was beating so high that I could hear his beats.

But at home I was waiting for other problems. As I was walking on my feet to the kitchen, my sister's husband, Ghour, saw his blond head and said, "Where are you, Papa, your sister has left the search for you?" At the moment, the door opened violently and my sister, The anger was my sister-in-law 's face. She grew up about twenty years ago, and was very sharp, without uttering a word

واحدة ، انقضت على وضربتني على رأسي ، وقذفت بى نحو زوجها ولكن جو العملاق وقف حائلاً بيني وبينها وحاولت هي ان تراوغ زوجها العملاق لكي تمسكنى ، ولكني تسترت خلفه ، وظللت أراوغها بمساعدة جو ، إلى أن تعبت و كفت عن ملاحقتى.

سحبني جو إلى مكان دافيء قرب المدفاة ومن هناك كنت أسمع قرقعة الأواني والأطباق التي تغسلها أختي في المطبخ ثم سمعت صوت طلقة نارية ، يأتي من بعيد فقلت هامسا : ما هذا الصوت يا جو فقال جو ، وهو يشرح لى الأمر : هذه طلقة تحذير تطلقها سفن السجن وهي تعبر النهر للتحذير من سجين هارب وهذه هي الطلقة الثانية للدلالة على أن سجيناً آخر قد هرب أما الطلقة الأولى فكانت في الليلة الماضية لتحذيرنا من أن لصاً أو قاتلاً قد استطاع الفرار .

كنت أرتعد وأنا اسمع ما قاله ، جو ودقت أختي على المائدة بنفاد صبر وهي تدعونا إلى تناول العشاء وأخذت تضع الزبد على الخبز وناولت كل واحد منا نصيبه وبالرغم من أن جو هو الذي يمدنا بالخبز وبالزبد ، الا أن طبيعته الطيبة كانت تجعله يتقبل مثل هذه المعاملة من أختي التي كانت تعامله مثل معاملة الأطفال .

One, she jumped on me and hit me on the head and threw me towards her husband, but Joe the giant stood between me and her and tried to dodge her giant husband to hold me but I hid behind him and I kept dodging with the help of Joe until tired and stopped chasing me.

From there, I heard a clap of dishes and dishes washed by my sister in the kitchen. Then I heard the sound of a gunshot coming from far away. I said, whispering: What is this voice, Joe? He said to me: This is a warning shot fired by the prison ships. They cross the river to warn a fugitive. This is the second shot to indicate that another prisoner escaped. The first shot was last night to warn us that a thief or a murderer had escaped.

I was trembling and I heard what he said. Joe and my sister were impatiently invited to the table and invited us to dinner. I put the butter on the bread and each one of us took his share, even though it was Joe who gave us bread and butter, but his good nature made him accept such treatment. My sister was treated like a child.

وبينما انهمكت أختي في الحديث عن استعداداتها لحفل عيد الميلاد ، في اليوم التالى ، وضعت نصيبى من الخبر في جيبي وقلت في نفسي : اذا لم أجد شيئاً آخر في المطبخ ، فلا أقل من أحتفظ بهذا الخبز للسجين الهارب الذي ينتظرني وكانت أختي لا تسمح لي بأن أضيء شمعة وأنا في طريقي إلى الصعود إلى غرفتي العلوية لذلك فقد ازددت خوفاً في تلك الليلة وأنا أصعد درجات السلم وخيل لي أني أنا أيضاً سأكون سبباً لأن تطلق سفينة السجن طلقاتها بعدما ارتكب سرقة بعض الطعام من المطبخ أو من غرفة الخزين .

وعندما رقدت على سريرى أخذت أتخيل أن سجيناً صغيراً يقبع بجوار السرير متربصاً بى ومستعداً لتمزيق قلبي ولهذا فقد احتفظت في يدى بقطعة الخبز التي خبأتها لكي أريها له فلا يقتلني وظللت على تلك الحال طول الليل ولكن السجين لم يظهر رغم توقعى لظهوره في أية لحظة ولم أستطع النوم أو يغمض لي جفن.

وفى الفجر عند ظهور أول خيط من ضوء النهار ، تسللت هابطا درجات السلم وكان رفع خطواتي على الأرض يكاد يصيح بي : أمسك حرامى وبمناسبة العيد فقد وجدت في المطبخ وبغرفة الخزين طعاماً أكثر مما كنت أتوقع لذلك فقد أخذت مزيداً من الخبز ، وقطعة كبيرة من الجبن ، وفطيرة كبيرة محشوة باللحم وبعض البراندى الذي أفرغته في زجاجة فارغة

وأضفت قدراً من الماء الى الزجاجة الأصلية حتى لا يحس أحد بما سرقته منها وقد جرؤت على أخذ فطيرة اللحم لأني رأيتها موضوعة على الرف الخلفي.

فاعتقدت أن اختي لاتنوى تقديمها إلينا في وقت قريب وكان في المطبخ باب يؤدي إلى ورشة الحدادة الخاصة بزوج أختي ، فتسللت إليها ، واخترت مبردا تقبلا من الأدوات التي يستعملها جو : وخبات جميع هذه الأشياء داخل معطفى ثم أسرعت آخذاً طريقي إلى المستنقعات التي تغطيها شبورة الصباح .

الفصل الثاني :السجين الثاني

كانت لم تزل هناك مسافة طويلة حتى أصل الى الحائط المهدم الذي أتوقع أن السجين الذي ينتظرني يختبيء خلفه ولكني رأيته فجأة أمامي رأيته من ظهره وهو جالس على حجر ، ويبدو نائماً واقتربت منه على حذر ، ثم ربت على كتفه لأنبهه فهب واقفاً على الفور واستدار إلى ولكنه لم يكن نفس الرجل كان رجلا آخر كان يرتدي أيضاً ملابس خشنة رمادية اللون وفي قدمه قيد حديدي ولكن ملامحه كانت مختلفة التفت إلى الرجل ، وهوى بيده ليضربنى على رأسي ، ولكني تحاشيت الضربة بسهولة ، لأنها كانت ضربة ضعيفة تدل على أن الرجل مريض ويعانى من شدة البرد وفجاة أخذ يفر من أمامي ، واختفى في الضباب الكثيف وكنت على يقين بأن هذا الرجل هو صديق الرجل الآخر وهو الذي يمزق قلوب الأطفال .

وعندما وصلت الى الحائط المهدم ، وجدت نفس الرجل الذي شاهدته بالأمس كان يتنطط ، على الأرض بنشاط حتى يدفيء جسمه ، ودون أن انطق بكلمة أخرجت المبرد والطعام من داخل معطفى، فاتسعت عيناه معبراً عن سروره ومد يده المرتجفة وبدأ يلتهم الطعام بنهم وعندما أخرجت الزجاجة وقدمتها إليه سأل مستفسراً : ماذا احضرت لي في هذه الزجاجة يا ولد .

فاجبت : هذا بعض , البراندى ، يا سيدى لعله يساعدك على التغلب على برودة المستنقعات لقد رأيته هناكفخطف الزجاجة من يدي فورا ، وشرب اكثر كمية ممكنة ، ثم مسح فمه بظهر يده وقال : فكرة جيدة تدل على ذكائك هاه هل أخبرت أحداً فاجبت : لا ياسيدى لم أخبر أحداً لقد سرقت لك هذا الطعام . فأرمأ برأسه راضياً وأخذ يقضم قطعاً كبيرة من فطيرة اللحم حتى كاد أن يقضي على الفطيرة بأكملها فقلت له : اني مسرور ياسيدي لأن الفطيرة اعجبتك ولكن الن تحتفظ لصديقك ببعض منها وفقال بخبث ودهاء : تقصد صديقي الذي يمزق قلوب الأطفال ؟.

وأخذ يضحك وهو يقول : لا أنه ليس في حاجة إلى الطعام ٠

فقلت على الفور : لا أعتقد ذلك ياسيدى فهو يبدو جائعاً وفي حاجة ماسة إلى الطعام وأخذ يبرد القيد الحديدى عندئذ هب الرجل واقفاً ، وأمسكني بكلتا يديه من ياقة معطفى وسألني بلهفة : تقول أنه يبدو ، ! هل رأيته أين ومتى ؟

فاجبت بسرعة وأنا أشير إلى الاتجاه الذي اختفى فيه الرجل الثاني : أنه هناك ياسيدى يرتدي مثل ملابسك وفي قدمه قيد حديدى لقد أطلقت سفينة السجن طلقة بالأمس لتحذر الناس منه ألم تسمع هذه الطلقة ؟.

- ربما سمعتها وربما لم أسمعها ان البقاء وحيداً في مثل هذه المستنقعات ، شيء يدير الرأس ٠ ما شكل ملامحه ؟ صفه لى واستعدت على الفور منظر السجين الثاني بملامح وجهة المعبرة عن الخوف والفزع

وقلت : رأيت كدمة على خده وعندئذ شعر بشيء من الارتياح وقال لي انه هو بالفعل سوف اصطاده كما تصاد الكلاب ولكن أين المبرد اعطني المبرد يا ولد وكان المبرد قد سقط على الأرض حين كان الرجل يتناول لفة الطعام فالتقطته وقدمته اليه وفي لمح البصر ، انحنى الرجل وركع على العشب المبتل وبدأ يبرد القيد الحديدي الملتف حول قدمه يبرد بهمة وجنون ورأيت أن أنصرف فتراجعت بظهري إلى الخلف عدة خطوات وأنا أنظر إليه ولكنه لم يهتم بى اطلاقاً تشدة انهماكه في برادة القيد الحديدى وعندئذ استدرت وبدات أجرى تجاه البيت وبالرغم من اني ابتعدت كثيرا عن مكان الرجل الا أني مازلت أسمعه يبرد ويبرد ويبرد وفي البيت ، كانت أختي منهمكة في أعمالها المنزلية تروح وتغدو كالدوامة هنا وهناك تعلق الستائر النظيفة البيضاء وترفع الأغطية عن الأثاث بغرفة الجلوس وكانت هذه الغرفة لا تستعمل إلا في المناسبات الخاصة وبالطبع فان الاحتفال بعيد الميلاد ، كان أهم هذه المناسبات وتناولت أنا و جو طعام الإفطار واقفين ، لأن أختي لم تجد وقتاً كافياً لتقديم الافطار على المائدة كانت منهمكة بالفعل في إعداد الطعام للضيوف المتوقع حضورهم في أية لحظة وفجاة ، أحسست وكأن قلبي قد توقف عن النبض هل كانت فطيرة اللحم معدة اذن للاحتفال بالعيد ؟ لقد شعرت بالفزع من تلك الفكرة المخيفة ونتائجها وظل هذا الإحساس يلازمني حتى حين استدعتني أختي وأخذت تغسل لي وجهي ورأسي ، ثم البستني أنظف ما لدي من ملابس وكذلك ارتدى جو ، أنظف ملابسه

وجلسنا معاً في حجرة الجلوس في انتظار الضيوف وعند أول طرقة على الباب الخارجي للبيت ، قمت وفتحت الباب الأول هؤلاء الضيوف مستر روبسل ، كاتب الكنيسة ثم حضر بعده صانع العجلات وزوجته ، مستر ومسز هابل ، وأخيراً وصل عمى مستر بامبلشوك ، بعربته الصغيرة الحقيقة أن هذا الرجل هو عم جو ولكن أختي اعتبرته عماً لها أيضاً ، لأنه كان تاجر الحبوب بالمدينة ويتمتع ببعض الثراء واستقبلته أختي بحفاوة بالغة وقال الرجل بزهو وأفتخار: مسز جو ، لقد أحضرت لك هدية طيبة نبيذاً فاخراً من أحسن الأنواع تمتع الجميع بتناول الطعام فيما عداى فقد كنت ممنوعا من الكلام بأمر من أختي رغم أن معظم الحديث كان يدور عني وعن المتاعب الكثيرة التي أسببها لأختى المسكينة ولم تسمح اختى لزوجها جو ، أن يدافع عني وطلبت منه أن يوافق على كل أقوالها ويبدو أن جو ، كان يود أن يعتذر لي بصمت فوضع لى كمية كبيرة من الصلصة على قطعة اللحم الخاصة بي ثم بدأ يحدث ما كنت أخشاه عندما قالت أختي بفرح : يا عمي مبلشوك ،لقد أعددت لك مفاجأة تحبها فطيرة محشوة باللحم وفي الحال ، صفق الجميع لهذا النبأ السعيد ولقد اختفت الفطيرة وبدأ الضيوف يفتحون شهيتهم استعداداً لتلك انفطيرة وسمعت كل حركات أختي وهي تبحث عن الفطيرة في كل مكان ، وتخيلت ما سوف يحدث حين عادت أختي خالية اليدين وهي تقول : يا الهي لا أعرف ماذا حدث لقد اختفت الفطيرة! ولم أستطع الصمود أكثر من ذلك ، فقمت واقفاً ، واندفعت إلى الباب لأهرب رأيت مجموعة من جنود الشرطة ، وكان قائدهم يمسك في يده بقيدين حديديين ، رفعهما أمام وجهي وهو يقول يا فتى عصمت جنود الشرطة يطلبون المساعدة.

الفصل الثالث : القبض والاعتراف

تلعثمت وتعثرت خطواتي وأنا أتراجع إلى الخلف اذن لقد عرفوا أني لص وجاءوا للقبض على وأمسكنى جو ، من ذراعي قبل أن أهوى إلى الأرض ٠ وعندئذ فقط ، ابتسم لي قائد الشرطة ، وقال برقة وهو ينظر الى الجميع : معذرة سيداتي وسادتي أنا جاويش ، في خدمة الملك وقد كلفت ويقوم باصلاح القيود الحديديةأنا ورجالى بالقبض على السجناء الهاربين ونحن في حاجة عاجلة إلى خدمة من الحداد فقالت اختى قبل أن ينطق جو ، بكلمة هذا هو الحداد ماذا تريدون منه في يوم الاحتفال بعيد الميلاد .

- نريد اصلاح هذه القيود الحديدية لأن قفلها لايعمل ونحن في حاجة شديدة اليها أشارت أختي لزوجها لكي يبدي رأيه فأمسك بتلك القيود الحديدية وفحصها وقال : لابد من اشعال فرن الحدادة واصلاحها قد يستغرق ساعة كاملة فوافق قائد الشرطة وقال : لا بأس فسوف نستطيع القبض على الهاربين قبل حلول الظلام وعلينا أذن اشعال الفرن !.

ودخل جميع رجال الشرطة الى البيت ، ووضعوا أسلحتهم في ركن من الحجرة وارتدى جو ثوب العمل.

ذهب جو إلى الورشة وتبعه جميع الجنود ما عدا قائدهم لمساعدته في انهاء العمل بسرعة

وقام العم بامبلشوك ، بدعوة الجاويش الى الجلوس معنا حول المائدة وصب له كأساً من النبيذ الذي أحضره معه كهدية وفي لحظات عاد الاحتفال الى بهجته من جديد بينما كانت تسمع من بعيد دقات مطرقة جو ، وهو يدق بها على السندان.

وبعد أن انتهى جو ، من اصلاح القيود الحديدية ، سمح لنا قائد الشرطة بأن نصحبه لمشاهدة عملية القبض على السجناء الهاربين ولم يوافق على ذلك سوى مستر روبسل و جو كما سمحت لي اختي بأن أخرج في صحبتهما ، ولكن بعد أن حذرت جو بصوت مسموع : اذا عدت ورأس الولد مقطوعة ، فلا تنتظر مني أن أعيدها إلى مكانها الصحيح !.

وذهبنا جميعاً الى ساحة المقابر خلف الكنيسة نفس المكان الذي قابلت فيه السجين الأول وبينما كان الجنود يبحثون ويفتشون المكان بدأت أشعر بالخوف فربما ظن السجين الهارب أني خدعته وأني أبلغت عنه رجال الشرطة وحضرت معهم لأرشدهم الى هذا المكان ولكن عندما لم يعثر الجنود على أحد ، تحركنا من جديد في اتجاه آخر وبدا يسقط علينا مطر شبه متجمد ولكن على حين فجأة سمعنا صرخة عالية تأتي من بعيد فأشار الجاويش لرجاله بالتقدم نحو المكان الذي صدرت منه هذه الصرخة وأخذ الجميع يجرون بخطوات سريعة واسعة فلم أستطع اللحاق بهم ، فحملني ، جو ، على كتفه وأخذ يجري مع الرجال إلى أن اقتربنا من حفرة واسعة يتناثر منها الماء والطين وسمعنا الجاويش يصرخ بقوة : سلما نفسيكما أنت وهو !.

ووقف الجنود حول الحفرة وهم يصوبون بنادقهم نحو السجينين اللذين كانا منهمكين في عراك لقد سرقت بعض الطعام والبراندي شديد ، ولم ينفذا الأمر الصادر اليهما بالتسليم لذلك فقد نزل الجنود إلى الحفرة ، وقبضوا على السجينين وهما في حالة رثة ويلهثان من شدة التعب وصاح السجين الأول غاضباً وهم يضعون يديه في القيود الحديدية : تذكروا جيداً أنا الذي قبضت عليه

اما السجين الثاني فقد كان يعاني من شدة ما ناله من الضرب ، ويكاد يهوى إلى الأرض غير قادر على الوقوف دون مساعدة ، وتلعثم وهو يقول مشيراً إلى السجين الأول : لقد حاول أن يقتلني وقال السجين الأول على الفور : أنا لم أحاول قتله ، والا لنجحت في ذلك بسهولة لقد حرصت على القبض عليه حياً لاسلمه لكم انظر يا سيدى الجاويش ليس في قدمى قيد حديدى وكان يمكنني أن أذهب إلى حال سبيلي ولكن عندما عرفت أنه هرب طاردته حتى لحقت به ، ومنعته من الهرب وعندند صاح به الجاويش أمراً : كفى !!.

وأشعلت بعض المشاعل كما أطلقت البنادق كأشارة إلى سفينة السجن لكي ترسل قارباً إلى هذا المكان وعلى ضوء المشاعل لمحني السجين الأول ونظرت إليه مواسياً ، وحركت يدى حركة خفيفة وهززت رأسي له كأشارة مني بأني لست مسئولاً عن احضار هؤلاء الشرطة للقبض عليه وحملق في عينى لحظة ، كما لو كان يريد أن يتبين مدى صدقى

ومشينا جميعاً تجاه شاطىء النهر ، حيث وصل القارب لأخذ الجنود والسجينين الى السفينة وقبل أن يضع السجين الأول قدمه في هذا القارب ، التفت إلى الجاويش وقال بصوت عال سمعه الجميع : أريد أن أقول شيئاً لقد سرقت بعض الطعام وبعض البراندى من بيت حداد القرية لقد سرقت فطيرة محشوة باللحم فقال جور على الفور : آه هذا هو السبب في أن زوجتي لم تعثر على الفطيرة ولكننا مع ذلك لانبخل بطعامنا على شخص جائع أليس كذلك يا بيب فأومأت برأسي موافقاً لأني كنت عاجزاً عن الكلام وابتعد القارب بحمولته متوجهاً إلى سفينة السجن أما نحن فقد اتجهنا إلى البيت .

الفصل الرابع : دعوة من الآنسة هافيشام

كان جو ، أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة ، بينما حصلت أنا على قدر بسيط من التعليم ولكن نظرا لأنهم كانوا يعدونني لكي أصبح صبياً مساعداً لجو ، في أعمال الحدادة ، فقد اكتفوا بهذا القدر من تعليمى .

كنت لا أرغب في شيء أكثر من أن أصبح حداداً أساعد جو ، في أعمال الورشة لقد كنت أحب العم بامبلشوك يقول أخباره كله اعلام تخت خفه يا جو حباً جماً وكان هو أيضاً يبادلني هذا الحب ويعطف على كثيراً وكان يدافع عني باستمرار وبقدر ما يستطيع ضد الضربات القاسية التي كانت توجهها إلى أختي ويحميني من طباعها الحادة وكان تدخله هذا لا يعفيه من تلقى بعض الضربات نيابة عني ، كما كانت أختى توبخنا نحن الاثنين معاً ، وفي وقت واحد وبعد انقضاء ايام قليلة بعد حفل عيد الميلاد ، حدث تغيير كبير في حياتي فقد جاء العم بامبلشوك ، في أحد الأيام وقال ان الآنسة هانيشام ، تدعوني إليها لألعب في بيتها وهى امرأة عجوز واسعة الثراء ، تعيش حياة كئيبة في بيت كبير مهمل ولم أكن قد رأيت هذه السيدة العجوز من قبل،ولكني سمعت عنها كثيراً وكنت أعرف أنها تعيش وحيدة منعزلة ، وأن بيتها مغلق دائماً بالمتاريس خوفاً من سطو اللصوص والآن ها هي السيدة الغريبة تدعوني لكي ألعب ، في بيتها وقال جو ، مندهشاً : ولكن كيف توصلت وهذه السيدة إلى معرفة بيب ، ؟

فصاحت فيه أختى : يا ساذج من قال لك انها تعرفه ثم ابتسمت إلى العم باميلشوك

وقالت : آن عمك يستأجر بعض أملاكها وعندما كان يدفع لها الايجار في يوم ما سألته السيدة اذا كان يعرف صبياً لتدعوه لكي يحضر ويلعب أمامها ولأن عمك طيب القلب ، فقد اقترح عليها دعوة هذا الولد لحسن حظه والآن ابعد عن طريقى كى أتولى تنظفيه وإعداده لتلبية هذه الدعوة .

وعلى الفور أمسكتني أختي وأخذت تغسل جسمى بالماء والصابون ، ثم جففتني وألبستني ملابس داخلية جديدة وأحسن مالدى من ملابس الخروج وأثناء ذلك لم تكف أختي ولا العم با مبلشوك ، عن تبادل الأحلام بصوت عال وقالت أختي متمنية أوه ليتني كنت ولداً صغيرًا لتدعوني هذه السيدة الثرية ربما ستعود هذه الدعوة بالنفع عليه بل ستعود بالنفع علينا جميعاً

وكان العم با مبلشوك : يهز رأسه موافقا بونار وهو يقول : لاشك في ذلك لاشك في ذلك لقد بدأ الحظ يبتسم له منذ الآن .

ووضعوني في عربة العم بامبلشوك ، التي ستأخذني الى حيث ألعب ولم أجسر على السؤال لماذا ألعب وما هو ترم هذا اللعب ثم وقفت العربة أمام بيت كئيب موحش مبني بالطوب وله سور يحيط به من كل جانب وبوابة مغلقة بالمتاريس ، ونوافذ كثيرة مغلقة بحوائط مبنية بالطرب وتحيط بها قضبان حديدية ودق العم جرس الباب ، فانفتحت احدى النوافذ وجاء منها صوت واضح : ما اسمك ؟ - اسمى : بامبلشوك ، وجئت لأسلم الصبى بيب

أغلقت النافذة على الفور وبعد لحظات قليلة ظهرت في الفناء الخارجي صبية صغيرة جميلة واتجهت إلى البوابة وهي تمسك ببعض المفاتيح وكانت الفتاة في مثل سني تقريباً ، ولكنها كانت تبدو اكبر من عمرها الحقيقي بسبب تكبرها الشديد والطريقة المتغطرسة التي تحرك بها رأسها وكتفيها ودون أن تنظر إلى قالت لي : ادخل يا بيب.

وشرعت على الفور في غلق البوابة قبل أن يدخل العم و با مبلشوك ، في صحبتى ٠٠ و نظرت اليه الفتاة شذرا وهي تغلق البوابة في وجهه وقالت له بكنير من التعالى هل كنت تريد مقابلة الآنسة هانيشام فقال العم وهو يشعر بكثير من الحرج اذا كانت الآنسة هانيشام ، تريد مقابلتى فقالت الفتاة عندئذ : أه هي لا تريد مقابلتك ستلا تغلق البوابة.

وبعد أن تركنا العم وهو يعاني من جرح كرانه عبرنا الفناء الداخلى ، ودخلنا إلى البيت من باب جانبى لأن الباب الرئيسي كان مغلقاً بالسلاسل وكان الظلام حالكاً داخل البيت ، ولكن الفتاة أشعلت شمعة كانت موضوعة على منضدة قرب الباب ثم سحبتني عبر ممرات كثيرة وصعدت بى سلماً كانت تقول لي بازدراء : هيا لا تتلكأ هكذا يا ولد ! .

ووقفنا أخيراً في مواجهة باب مغلق ، وقالت الى الفتاة : هيا أدخل !فقلت لها بشيء من الخجل والأدب : بعدك يا آنستى ! فقالت بحزم : لاتكن سخيفاً هكذا ياولد فأنا لن أدخل الآن اغرب سيدة شاهدتها في حياتي.

وانت الشمعة وانصرفت عائدة ، وتركتنى في هذا الموقف ، وسط الظلام الدامس وشعرت بكثير من الرهبة وأنا أطرق الباب وسمعت صوتاً مبحوحاً يدعوني للدخول فدخلت .

وجدت نفسي في حجرة واسعة مضاءة بالشموع تبدو كما لو كانت حجرة الملابس لاحدى السيدات فقد كانت هناك مرآة كبيرة ذات اطار مذهب موضوعة فوق منضدة مغطاة بمفرش وكانت هنالك ملابس نسائية كثيرة متناثرة هنا وهناك أو موضوعة في بعض صناديق الملابس وفي وسط هذا كله رأيت أغرب سيدة شاهدتها في حياتي كانت ترتدي ملابس العرس البيضاء ثوباً من الحرير الأبيض والدانتيلا البيضاء وعلى رأسها طرحة طويلة بيضاء أيضاً وفي قدمها فردة واحدة من حذاء أبيض ، أما الفردة الثانية فكانت موضوعة على منضدة قريبة وكانت الآنسة هافيشام وقلبها الكسيرتلبس في يدها قفازات بيضاء وتمسك بمنديل أبيض من القماش المخرم وعلى التسريحة كتاب للصلوات له غلاف أبيض ورغم اني قد وصفت جميع هذه الأشياء بالبياض ، إلا أن لونها في حقيقة الأمر يميل إلى الصفرة بفعل الزمن كما أن الزمن قد ترك بصماته واضحة على السيدة العجوز التي ترتدي هذه الثياب

فالواضح أن ثوب العرس الذي كانت ترتديه ، كان معداً من قبل العروس شابة ، أما الآن فهو يبدو متهدلاً فوق جسم متهدل نحيف لا يعدو أن يكون جلداً على عظم هذه اذن الآنسة هانيشام قالت لى : من أنت ؟فقلت : أنا - بيپ ، يا سيدتي أحضرنى العم بامبلشوك ، لكي ألعب فأمرتني : اقترب مني هل تخاف من سيدة لم تر الشمس منذ مولدك فهززت رأسي قائلاً : لا رغم أن الحقيقة كانت غير ذلك وعندئذ وضعت يدها على الجانب الأيسر من صدرها ، وسألتني : هل تعرف ماذا يوجد هنا داخل صدرى ؟

فقلت على الفور : قلبك يا سيدتي فابتسمت ابتسامة غريبة وقالت في شيء لا يخلو من الاحساس بالفخر : قلب كسير ثم أشارت إلى لكي أنظر إلى الساعة الموضوعة فوق التسريحة ، وإلى ساعة أخرى معلقة على الحائط وكانت عقارب كل من هاتين الساعتين متوقفة عند الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة .

وقالت لي وهي تومىء برأسها ايماءة ذات معنى : أنا تعبانة وأريد شيئاً يسليني وعندى ميل شديد لأرى شخصاً ما وهو يلعب هيا العب !

وقفت صامتاً دون أن افعل شيئاً لا أدري ماذا أفعل ولا كيف ألعب واستدارت هي لكي ترى صورتها المنعكسة على صفحة المرآة وبعد فترة قصيرة التفتت إلى وصاحت بعد أن نفد صبرها نادي على ستلا انك على الأقل تستطيع أن تفعل ذلك اذا كنت لا تستطيع أن تلعب قلت لك نادى على ستلا.

خرجت من الحجرة إلى الممر المظلم ، وناديت على ستلا وفي الحال ظهر نور الشمعة التي تحملها ستلا ، قادماً نحوى..

وما أن دخلت الفتاة الى الحجرة حتى قربتها الآنسة هانيشام إليها ثم أخرجت من أحد أدراج التسريحة قطعة مجوهرات علقتها بشعر ستلا ، الكستنائي وقالت لها وهي تضحك ضحكتها الغريبة في يوم ما ستصبح هذه الجوهرة ملكاً لك يا عزيزتى ستكسبين بها اعجاب الرجال الذين ستحطمين قلوبهم والآن العبي الورق مع هذا الفتى وسأتفرج عليكما وقالت ستلا ساخطة : ألعب مع هذا الفتى؟ انه مجرد عامل صغير من أبناء العوام. !

فهمست لها الآنسة هافيشام: حتى ولو كان كذلك يمكنك أن تحطمى قلبه ألا تستطيعين ذلك ؟ وأطاعتها ستلا ، وجلسنا على الأرض لنلعب الورق ولكني لم استطع أن أركز ذهني في اللعب بسبب الملاحظات الكثيرة التي كانت تبديها ستلا للآنسة , هانيشام ، كانت تقول باشمئزاز واضع : أن يديه خشنتان وحذاءه غليظ انه لا يعرف الاسم الصحيح لورقة الولد في الكوتشينة لقد تضايقت كثيراً من سوء معاملتي ، ومن كثرة الملاحظات التي أبدتها ستلا ، على تصرفاتي ، وشدة إستهزائها بي وبطبيعة الحال فقد كسبت ستلا ، الجولة.

وكانت الآنسة هافيشام ، تجلس هامدة كالجثة وهي تراقب اللعب وأخيراً انحنت نحوي وقالت لي : ان ستلا ، قالت عنك أشياء كثيرة غير طيبة وأنت الم تقل عنها أي شيء ما رأيك فيها اخبرنى وازاء هذا الاصرار من الآنسة هافيشام ، اضطررت أن أهمس في أذنها قائلاً ستلا ، فتاة جميلة فخورة بنفسها ولكنها كثيرة الشتائم هل يمكنني أن أنصرف الآن ؟!.

ولكن الآنسة هافيشام ، لم تسمح بانصرافى قبل أن اكمل جولة ثانية من اللعب ثم أمرتنى بالانصراف على أن أعود اليها بعد ستة أيام وأمرت ستلا ، بأن تقدم لي شيئاً من الطعام فقدمت إلى بعض الخبز وقطعة من اللحم بطريقة جعلتني أحس بأنها تقدم الطعام إلى أحد الكلاب ومن شدة ما عانيته من آلام الهوان والذل طفرت الدموع من عيني وسالت على خدي وعندئذ لمحت ابتسامة الاستمتاع ترتسم على وجه ستلا ، وهي تهز رأسها بازدراء واضح وعندما عدت الى بيتى عاملتني أختى معاملة حسنة باعتبارى قد وصلت إلى مكان ما في هذا العالم ، وتقدمت ولو خطوة واحدة إلى الأمام ولكني في حقيقة الأمر كنت بائساً.

لم أكن أعرف من قبل أني من العوام إلا بعد أن أشارت ستلا ، إلى ذلك ولم أكن أدري كم كان حذائى غليظاً وكم كانت يداى خشنتين وكم كان جهلي لأني لا أعرف الاسم الصحيح لورقة الولد فى الكوتشينه وشعرت بالخجل والعار من كل ذلك وكان اللقاء الذي تم مع ستلا ، الجميلة في هذا اليوم سبباً في تغيير حياتي كلها .

الفصل الخامس :أول قبلة في حياتي

وبعد ستة أيام عدت طائعاً لمقابلة الآنسة هافيشام ، ومرة أخرى قادتني الفتاة المتغطرسة ستلا ، عبر الممر المظلم وكانت الآنسة هافيشام ، جالسة كالمعتاد أمام تسريحتها ، واستقبلتني هذه المرة قائلة : انك لا تجيد اللعب يا فتى هل تحب أن تشتغل اذن ؟!فاومأت برأسى موافقاً، وأشارت إلى بأن انتظرها في حجرة الطعام عبر الصالة وكانت حجرة الطعام مماثلة تماما لحجرة الملابس نفس الستائر المسدلة التي تحجب ضوء هذه كعكة عرسى.

النهار ، ونفس الرائحة الخانقة للهواء المكتوم وكانت عقارب الساعات الموجودة بتلك الحجرة متوقفة أيضا عند الساعة التاسعة الا عشرين دقيقة وكانت قطعة الأثاث الرئيسية الوحيدة بتلك الغرفة ، عبارة عن مائدة كبيرة مستطيلة ، مغطاة بمفرش قديم يعلوه التراب وتبدو كما لو كانت معدة ـ منذ زمن مضى ـ لأحسد الاحتفالات وفي منتصف المائدة كان يوجد جامل فضى عليه صينيه فضية كبيرة فقدت بريقها ، وفوق الصينية كانت توجد كومة ص فراء اللون من شيء لم استطع أن أتبينه بسبب الأكوام المتراكمة من خيوط نسيج العنكبوت التي تغطيه وتغطى الصينية والحامل وكل شيء آخر على المائدة .

وكنت مأخوذا بمشاهدة العديد من الفئران وهي تجري هنا وهناك وفي كافة انحاء الحجرة لدرجة أني لم اتنبه إلى وقع خطوات الآنسة « هانيشام ، وهي تعرج في طريقها إلى الحجرة ، محنية الجسم

مستندة على عصاة تساعدها في المشي وأشارت الآنسة رهانيشام ، بعصاها إلى الكومة الصفراء التي تغطيها خيوط العنكبوت وقالت : هذه كعكة عرس !

ثم استندت بيدها المرتعشة على كتفي ، وأمرتني قائلة : والآن فان كل الشغل المطلوب منك هو أن أستند على كتفك وتدور معي حول الغرفة وعلى الفور استندت على كتفي وشرعنا ندور ببطء شديد حول الغرفة مرات ومرات وكان هذا هو الشغل ، المطلوب مني ، بالاضافة إلى جولة ولعب ، بورق الكوتشينه مع ستلا ، تحت مراقبة الآنسة هانيشام ، وينتهي الأمر أخيراً بتغذيتى مثل الكلاب واستمر الحال على هذا المنوال لمدة ثمانية شهور وربما أكثر وبمرور الوقت تقدمت قليلا في اللعب ومع ذلك فقد ظلت ستلا ، تقسو على بشدة ، وكانت دائماً تجد أي نقص أو أية مناسبة لتسخر منى.

لكن هذا النظام اختلف في مرتين المره الأولى حدثت حين كانت ستلا ، تقودني لصعود السلم فقد شاهدت رجلاً في منتصف درجات السلم وتوقف الرجل عن النزول وأخذ يتفحصني وسأل ستلا : من هذا الفتى ؟: فأجابت ستلا بلا عناية ولا اهتمام : مجرد ولد ان كان الرجل ضخم الجسم كبير الرأس ، وكان من الصعب على أن استريح لمنظره وهو ينظر إلى بارتياب ، عينيه الحادتين تحت حواجبه الثقيلة السوداء وقال الرجل : هل هو من الجيران ؟ أجبت على الفور نعم يا سيدى أنا وبيب، يا سيدى !وتأملنى الرجل لحظة ، ثم أزاحنى من طريقه ولهذا فقد نسيته ونسيت مقابلته

لأنه حتى تلك اللحظة كان عديم الأهمية بالنسبة لي أما المرة الثانية التي اختلف فيها هذا النظام ،فحدثت حين تركتنا الآنسة رهانيشام .

ستلا - لكي نلعب الورق أكثر من الوقت المعتاد وفي هذه المرة تأنيت كثيراً وأنا أرتب أوراق اللعب فكسبت الجولة وأثنت على الآنسة هافيشام- ويبدو أن هذا الثناء قد أثر في نفس ستلا لأنها عندما كانت توصلني الى البوابة توقفت واستدارت نحوي وقالت : تعال يمكنك الآن إن تقبلني اذا كنت راغباً في ذلك وقدمت إلى خدها فقبلته وحتى تلك اللحظة كنت على استعداد أن أضحي بأي شيء في سبيل قبلة واحدة من ستلا ، ولكنها حتى وهي تمنحني هذه القبلة ، كانت تتكلم بالطريقة المتغطرسة المتعالية التي كلمتني بها الآنسة هانيشام ، حين أثنت على كانت ستلا ، تقلد السيدة العجوز في كل شيء حتى في طريقة اعطائها البقشيش ، لفتى من العوام مثلى ، استطاع أن يفعل شيئاً يستحق الثناء.

وفي يوم ما ، حين كانت الآنسة هانيشام ، تضع يدها لتستند على كتفى لنقوم بالجولة المعتادة ، قالت لي : يبدو أنك تزداد طولاً يا بيب ثم سألتني عما اذا كان زوج أختى الحداد مازال متمسكاً بي لكي أصبح صبية بصفة رسمية فقلت لها : أن ذلك هو أعز أمنية لصديقى جو، وهنا قالت لي : اذن فقد حان الوقت لتصبح هذه الأمنية حقيقة .

وعلى هذا فقد ذهبت إلى مجلس المدينة في صحبة أختي وجو ، والعم بامبلشوك وهناك قاموا بتسجيل اسمى رسمياً لأصبح صبياً لجو

وعندما قدمت الأوراق الرسمية للأنسة هافيشام ، لتراها كما طلبت من قبل وافقت على ذلك وأعطتني مبلغاً عظيماً من النقود خمسة وعشرين جنيهاً ذهبياً وقالت لي : لقد كنت ولداً لطيفاً وهذه هي مكافأتك ولا تتوقع أكثر من ذلك ولا تحضر الى هنا بعد الآن لقد أصبح جو جاجرى ، سيدك واستاذك .

وعندما عدت إلى البيت ، وشاهدوا المكافأة التي حصلت عليها، أصبحت أختي أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى ، بأن الآنسة هانيشام ، مازال لديها بعض الخطط الخاصة بمستقبلي فوافقها العم بامبلشوك على هذه الفكرة ، وذكرنا جميعا بأنه السبب المباشر في تقديمي إلى الآنسة هافيشام ، ولولاه لما تمت هذه المعرفة .

أما ، جو ، فقد كان في غاية السعادة ورغم أن ذلك هو بالضبط ما كنت أسعى اليه واتمناه فيما مضى إلا إني أصبحت الآن غير راغب في الوقوف أمام فرن الحدادة بل وغير راغب أيضاً في أن أعيش حياتى كحداد ٠كانت معرفتي بالآنسة هافيشام ، وستلا ، قد غيرت مشاعري تماماً

الفصل السادس : الحزن والخجل

ومرت الأيام وأنا أعمل كصبى حداد وفي كل يوم كانت كراهيتي تزداد لهذه المهنة كان يخيل إلى في بعض الأوقات أن ستلا ، تطل على من فتحة فرن الحدادة وترى وجهى ويدى وقد علاهم الهباب الأسود وتضحك ملء فمها وهي تحتقرني وتزدرينى وتسخر منى .

فكرت مرة في أن أهرب من هذه المهنة لأعمل في البحر ولكني خشيت أن أؤذي مشاعر جو ، بهذا الفعل المشين أو أحطم وهمه بأن مهنة الحدادة مهنة طيبة لذلك فقد وطدت نفسي على اخفاء مشاعرى عن جو كنت تعساً حزيناً ولكني كنت أشعره بأني في غاية السعادة .

وبعد مرور سنة أصبحت لا اطيق منع نفسى من رؤية . س تلا ، والآنسة هافيشام ، أكثر من ذلك وما أن وافق جو ، على اجازتي ليوم واحد ، حتى وجدت نفسي في الطريق إلى بيت الآنسة هافيشام ومر وقت طويل وأنا واقف أمام البوابة استجمع قواى لدق الجرس .

وجاءت امرأة لترى من الطارق وقدمت لي نفسها باعتبارها احدى بنات العمومة للآنسة هافيشام،وكنت على يقين أن هذه المرأة تريد أن تطردني ولا تسمح لي بالدخول ، لولا أنها لا تملك مثل هذا الحق إلا بعد أن تأخذ الأوامر من الآنسة وهافيشام ولحسن الحظ فقد سمحت الآنسة هافيشام بدخولي وكان كل شيء بالبيت كما هو مثلما تركته آخر مرة وقالت لى فور استقبالى :

هاه أرجو ألا تطلب شيئاً لنفسك فلن أعطيك أي شيء بالمرة .

فاجبت : لا يا آنسة هافيشام جئت الأخبرك بأن عملى كصبى حداد يسير على نحو حسن وأنا أشكرك لأنك ساعدتيني على ذلك .

فقالت : اذا كان الأمر كذلك فهذا شيء طيب وفي استطاعتك أن تحضر لزيارتي بين حين وآخر ويمكنك أن تحضر في عيد ميلادك القادم .

وعندما لاحظت أني انظر حولي باحثاً عن شيء ما أدركت ما أفكر فيه وابتسمت ابتسامه ماكرة وهي تقول : أراك تبحث عن ستلا أليس كذلك ؟

فقلت على الفور : نعم يا سيدتي وأرجو أن تكون بخير .

فقالت ونفس الابتسامة على فمها : أنها بخير لقد سافرت إلى خارج البلاد وهي الآن تتعلم لكى تصبح سيدة انها الآن أكثر جمالا من أي وقت مضى وتحوز اعجاب كل من يشاهدها هل تشعر بأنك فقدتها ؟

وأطلقت ضحكة حقودة وهي تسألني هذا السؤال ولكني لم أجبها بشيء وانتهت المقابلة واسرعت بالخروج من الحجرة وهبطت درجات السلم وخرجت من البيت وسرت في الطريق عائدا الى بيت ومازالت ضحكتها الحقودة ترن في أذني

كان ظلام الليل قد حل وانا اقترب من البيت وقد أدهشني أني رأيت جميع أنوار البيت وورشة الحدادة مضاءة وعندما اقتربت أكثر،رأيت عديداً من الناس يتجمعون في الفناء الخارجي

فبدأت أجرى وأفسح الناس لى الطريق عندما شاهدونى وفي المطبخ رأيت مجموعة أخرى من الناس متجمعين على شكل حلقة وكان جو ، يقف بينهم ومعه طبيب القرية وعلى الفور أفسحوا لى مكاناً لأرى منه ما يتحلقون حوله كانت أختي راقدة على أرض المطبخ بلا حراكغائبة عن الوعي وتنزف الدماء بغزارة من جرح شديد في رأسها وضع ، جو ، ذراعه حول كتفى وقال يشرح لى الأمر : والآن يافتي يجب أن نتذرع بالشجاعة لقد تسلل شخص شرير إلى هذا المطبخ وضرب مسز جو ، على رأسها وقلت وأنا ألهث : هل مازالت حية يا جو.؟

وعندئذ أجاب الطبيب : نعم حية ولكن من المحتمل ألا تعود إلى حالتها الطبيعية

وقامت الشرطة بالتحقيق في الحادث وسألت كل فرد في المنطقة ولكن أحداً لم يشاهد الجريمة حين وقعت وكل ما قيل أن شخصاً ما قد تسلل الى المطبخ وفاجأ أختى حين كانت تقف أمام الموقد وضربها بشي تقيل على مؤخرة رأسها وعلى هذا استمر التحقيق لأسابيع طويلة ، دون أن يعرف الجاني من هو .

وكنت أعرف أنا وجو أن أختي قد اكتسبت عداوات كثيرة بسبب سلاطة لسانها وحدة طباعها فلم أكن أنا الشخص الوحيد في هذه القرية الذي تلقي الضربات العنيفة من قبضتها القوية وكنا نعرف أنها كانت مكروهة تماماً من العديد من الناس ولابد أن واحداً منهم هو الذي ارتكب هذه الجريمة

ولكننا لم نذكر عن هذا الموضوع شيئاً. عادت حية لكنها فقدت ذاكرتها وأصبحت عاجزة تماماً عن الكلام وبالتالي فقد تغيرت شخصيتها وعاداتها أصبحت هادئة صبورة ولا تطلب شيئاً سوى أن تشير بيديها لكي نضعها جوار المدفأة تماماً مثل قطة عجوز .

وفي البداية كان جو قلقاً ومضطرباً بسبب الحالة التي آلت إليها زوجته ولكنه بالتدريج ، بدأ يحس بالهدوء والمتعة خصوصاً بعد أن جاءت بيدى، لتعيش معنا لكي تخدمنا وتعتني بنا .

الفصل السابع

انقضت نحو أربع سنوات منذ أن عملت صبياً لجو ، عندما ظهر مستر جاجزر ، أمام باب بيتنا لقد تعرفت عليه على الفور لقد كان نفس الرجل الذي قابلناه أنا وستلا ، -على درجات السلم ببيت الآنسة هافيشام ، منذ سنوات مضت نفس الرجل بعينية الحادة النظرات وحواجبه الكثيفة السوداء.

قال وكانه يتمتع بنفوذ عظيم : أعتقد أن هذا هو بيت الحداد ، جوزيف جارجري وصبيه بيب فقال جو هذا صحيح ياسيدى فقال الرجل بتؤدة وبكثير من الوقار اسمى جاجرز وأنا أعمل محامياً في لندن وقد جئت إلى هنا بناء على طلب أحد عملائي .

تاثر جو ، بالطريقة الفخمة التي كان يتحدث بها الرجل ، فقاده إلى حجرة الجلوس حيث سبقتهما إلى هناك لكي أرفع الأغطية عن المنضدة والكراسي والأريكة.وسحب مستر جاجرز ، الكرسي إلى جوار المنضدة ، ووجه الى جو نظرات صارمة ، وبدأ يقول لقد جئت إلى هذا لأعرض عليك أن تتخلى عن بيب كصبي لك وهذا من أجل مصلحته فكم تطلب لكى تعفيه من العمل معك .

فأجاب جو بلا تردد : لا أطلب أي شيء اطلاقاً ولا يمكن أن أقف كعقبة في طريق بيب مادام ذلك في مصلحته .

وهنا التفت مستر جاجرز إلى وقال : لدى تعليمات بأن أخبرك بأنك ستصل أخيراً إلى عالم الثروة والمال ويريد الشخص الذي سيمنحك الثروة أن تتأهل من الآن لكي تصبح قادراً على إدارتها ، ولهذا فان هذا الشخص يريد منك أن تتعلم لكي تصبح جنتلمان ، لديه أمال كبرى في مستقبل مزهر بالثراء وفاض بى احساس عظيم بالسعادة والفرح فها هو حلم يتحقق أخيراً وها هي الآنسة هافيشام ، تحول خيالى العارم إلى حقيقة واقعة .

وواصل مستر جاجرز حديثه قائلاً والآن يا مستر بيب ، هناك بعض الشروط لا بد أن تعرفها .

أولاً: فان هذا الشخص يريد منك ان تتمسك دائما باسم بيب .

ثانياً: أن اسم هذا الشخص المتبرع لك يجب أن يظل سراً إلى أن يعلنه هو بنفسه وقتما يريد وإذا كنت قد خمنت اسم هذا الشخص وعرفته ، فيجب أن تحتفظ بذلك لنفسك وتلزم الصمت فهل هذا واضح ومفهوم !؟ فأومأت برأسي موافقاً . هل قبلت هذه الشروط . !؟

فأومأت برأسي مرة أخرى، واكدت لمسترجاجرز، أن هذه الشروط واضحة تماماً ومفهومة وسألتزم بها وأطيعها .

وصمت ومستر جاجرز،فتر لعله كان يريد أن يهيننا لسماع كلماته الأخيرة بقدر من الاهتمام وانقض قائلاً : أما بالنسبة للاجراءات والاستعدادات فقد قلت لك ان أمامك آمالاً كبرى في مستقبل مزدهر، أما الآن فقد خصص لك مبلغ كبير من المال مبلغ يكفي وزيادة لمصاريف تعليمك ونفقات معيشتك

وسأحتفظ بهذا المبلغ ليكون تحت تصرفك ، وللصرف منه عليك أولاً بأول لذلك فيجب أن تعتبرني وصياً عليك .

وعندما حاولت أن أشكره ، أشار إلى بيديه كلا كلا شكراً لك فأنا قد حصلت على أجر كبير نظير هذه الخدمات والآن أرجو أن تستمع جيداً إلى المقترحات التالية : عليك بالحضور إلى لندن فوراً بعد أن تشتري بعض الملابس المناسبة وهناك سوف تسكن مع هربرت بوكيت ،وهو جنتلمان، صغير في مثل سنك ولعلك تستطيع أن تتعلم منه بعض العادات والتقاليد الحسنة كما أني أقترحت أن يكون أبوه معلماً خاصاً لك فما رايك في كل هذا .

قلت مندفعاً : كل ما تقوله يامستر جاجرز، ساقبله ولقد سمعت عن عائلة بو كيت ، من قبل انهم ينتمون بصلة القربي إلى الآنسة مانيشام .

ولم تتأثر ملامح . مستر جاجرز ، بأى شى عند سماع اسم الأنسة هافيشام وبدا وجهه كما لو كان قد نحت من الحجر وقال:نعم انهم يمتون بصلة القربي إليها والآن اليك بعض النقود الخاصة بشراء الملابس ومصاريف الرحلة وقدم لي عشرين جنيهاً من الذهب وترك بطاقة صغيرة تحمل اسمه وعنوانه في لندن وودعنا وخرج.

وظللنا أنا وجو جالسين على الأريكة صامتين مشدوهين كما لو كنا قد أصبحنا تمثالين من الحجر إلى أن جاءت بيدى فأفاق جو من دهشته ، وأخذ يقص عليها حكاية الحظ السعيد والثروة التي هبطت على من السماء ثم اندفع جاجرز يعطى النقود وبطاقة عنوانه لجو ، بعد ذلك نحو المطبخ ليحاول افهام أختي هذه الحكاية.

وهنأتنى بيدى ، بحرارة وصدق ، وقالت لى بهدوء : هاهو حلمك الأكبر قد تحقق فهل ياترى ستتحقق أحلامك الأخرى .. ؟! كنت أعلم أنها تشير بذلك إلى حبى لستلا، ولكني كنت أعلم في نفس الوقت أن بيدى ، تعتبر ستلا ، فتاة مغرورة لا تستحق هذا الحب .

أما أختى فقد أصبحت الآن غير قادرة على الفهم والادراك ورغم ما بذلناه من جهد في الشرح ، الا أننا لم ننجح في افهامها حقيقة ما حدث رغم أنها ابتسمت مسرورة بما لاحظته من زيادة الاهتمام بها على هذا النحو المفاجيء وفي صباح اليوم التالى ، استيقظت مبكراً وأسرعت بالذهاب إلى دكان مستر تراب ، خياط القرية ولكن صبيه أخبرني بأنه مازال يتناول طعام افطاره بشقته التي تقع خلف الدكان واضطررت الى الانتظار فترة أوشك أن ينفد فيها صبرى إلى أن دعاني الخياط أخيراً لمقابلته في شقته كان لا يظن أن سبب مجيئي يستأهل التوقف عن تناول إفطاره لذلك فقد وقفت أمامه دون أن يهتم بدعوتي إلى الجلوس أو مشاركته في طعامه .

وأخرجت من جيبي بعض الجنيهات الذهبية وقلت له مستر تراب ، .. لقد وصلتني بعض النقود واريد منك خدمة عاجلة .

وفي لمح البصر ، توقف الخياط عن تناول الطعام ، ومسح أصابعه وهب واقفاً واتسعت عيناه من شدة الدهشة وشرحت له الأمر : أن على أن أتوجه إلى لندن بصفة عاجلة وأريد منك أن تصنع لي حلة على المودة الحديثة لأرتديها في تلك الرحلة .

ودعانى الخياط فوراً إلى دكانه وبدأ يمارس عمله بهمة ونشاط وأمر صبيه بانزال مجموعة من أثواب القماش المرصوصة على الرفوف واحداً بعد آخر لاختيار القماش لحلة جديدة .

ثم أخذ مقاييس جسمى واكد لى أن تناسب هذه المقاييس سيساعد في تفصيل حلة ممتازة ثم قام بعد ذلك بتوصيلى إلى خارج الدكان ، وفتح لى الباب بنفسه وودعني بحفاوة بالغة وكانت هذه هي تجربتي الأولى في معرفة مدى التأثير العظيم للنقود في نفوس الناس .

وما أن انتهى الخياط من صناعة الحلة ، حتى ارتديتها على الفور ، وأخذت طريقي إلى بيت الآنسة»هافيشام ، لأودعها ولكنها قالت لي انها عرفت حكاية الحظ السعيد والثروة التي جاءتني عن طريق مستر جاجرز وتمنت لى النجاح والتوفيق ثم أشارت إلى بعصاها لكي انصرف .

كنت أريد أن أشكرها على كل ذلك ولكني تذكرت الشروط التي أملاها على مستر جاجرز بعدم الكشف عن اسم المحسن الذي تبرع لي بكل هذه الثروة

حتى وان كنت أعرفه فلزمت الصمت وأنا أسمع آخر الكلمات التي قالتها الآنسة هافيشام وداعاً يا بيب ،وعليك أن تحتفظ دائماً باسم ، بيب كما تعرف.

وكلما اقترب موعد رحيلى ، أزداد جو كآبة وحزناً وقال لي بتأثر شديد : هل حقاً سأفتقدك يا بيب افتقد الصبي المطيع الذي كان يساعدني في أعمال الورشة افتقد الصديق العزيز الذي أحببته منذ أن كان طفلاً ما أسعد الليالي التي كنا نجلس فيها معاً أمام المدفأة .

ونزلت من عيني الدموع لأن شغفي بالسفر إلى لندن واحساسي بأن آمالي وتمنياتي الكبرى في سبيلها إلى أن تصبح حقيقة واقعة وهذه الحالة الطارئة التي غيرت مجرى حياتي كل ذلك قد جعلني أوشك أن أنسى أعز أصدقائي.

الفصل الثامن : حياتى الجديدة

سافرت إلى لندن راكباً عربة تجرها أربعة جياد قطعت المسافة في نحو خمس ساعات وكنت أشعر بالرهبة حيال هذه المدينة الكبيرة ، إلا أني صدمت حين رأيتها مدينة غير نظيفة ، ملأى بشوارع ضيقة متعرجة قبيحة الشكل .

وذهبت مباشرة إلى مكتب مستر جاجرز حيث أخبرني بقيمة الحصة المخصصة لى من المال ومى مبلغ كبير أكثر مما كنت أتوقعه كما أعطانى مجموعة من البطاقات المالية التي أستطيع أن أتعامل بها مع الخياطين وأصحاب المحلات الأخرى التي اشترى منها حاجاتي على الحساب ، وعلى أن ترسل الفواتير إلى مكتب مستر جاجرز ، ليقوم بدفعها وتسوية حساباتها ورضيت تماماً بتلك الطريقة التي تسهل أمور حياتى ، كما تساعد مستر جاجرز ، في مراقبة نفقاتى .

ونادى مستر جاجرز، على كاتبه مستر وميك ليقوم بتوصيلي إلى الحجرات المخصصة لاقامتى مع الشاب الصغير وهربرت بو كيت .

كان مسنر وميك رجلاً قصيراً ونحيفاً تتألق عيناه بنظرت، حادة وقادني الرجل الى مبنى كبير يسمى خان بارنارد ، وهو عبارة عن مجموعة من المباني يتوسطها حوش كبير ودخلنا من البوابة ، ثم اتجهنا إلى أحد تلك المباني وصعدنا درجات السلم الى حجرات الطابق العلوي ولكننا وجدنا على الباب ورقة معلقة مكتوب عليها سأحضر حالاً ،ولأن الباب كان غير مغلق

لذلك فقد دلفنا إلى الداخل . وعندئذ قالى ليو مستر وميك أعتقد انك الست في حاجة إلى الآن وعلى أن أنصرف وأعتقد أننا سنتقابل بعد ذلك بين حين وآخر لأني أشرف على الحسابات المالية الخاصة بمكتب مستر جاجرز وشكرته كثيراً قبل أن ينصرف وأخذت أفحص تلك الحجرات المخصصة لسكني باعتبارها البيت الجديد الذي سأعيش فيه حياتي في لندن كانت الحجرات كبيرة وتبدو أوسع مما هي عليه فعلا ، وذلك بسبب قلة ما فيها من قطع الأثاث كما كانت تبدو غير نظيفة بدرجة كافية ، وان كان هذا أمراً محتملاً باعتبارها مسكونة بشخص أعزب.

وبعد نحو عشرين دقيقة ، سمعت وقع خطوات بالصالة وظهر شاب صغير يافع ، يحمل في يده صندوقاً صغيراً به كمية من ثمار الفراولة ابتسم الشاب ابتسامة مرحبة وهو يلتقط أنفاسه وقال مستر بيب ٠ ؟

فابتسمت مرحباً وقلت : نعم يا مستر بوكيت٠

واعتذر لي قائلاً:آسف لتأخري فقد كنت لا أعرف الموعد الحقيقي لوصول العربة إلى لندن ورأيت من الأفضل أن أقدم لك مع غدائك بعض الفواكه الطازجة لذلك فقد خرجت لاشتريها.

وكان هذا اللقاء أول دليل على أن هربرت ، شخص طيب وعطوف وبدأنا الحديث دون أن يتيح أمامى فرصة لأشكره بينما استمر هو في التحدث عن ترتيب حياتنا معاً .

وفي مطعم بالمبنى المجاور كنا نتناول وجباتنا ، وبترتيب سابق مع مستر جاجرز ،كنت أقوم بالتوقيع على فواتير الحساب الخاصة بنا معاً فقد كان هربرت فقيراً رغم أنه جنتلمان ، حقيقى وقد اعترف لي هربرت ، بفقره بطريقة صريحة ومهذبة جعلتني أحبه أكثر وأكثر في كل دقيقة تمر منذ لقائنا وكان يتقاضى دخلاً متواضعاً من البنك الذي يعمل فيه وهو دخل يكفي بالكاد للوفاء بالمصاريف النثرية .

وأحضر الخادم لنا غداءاً شهياً يتكون من دجاج محمر وزبد وجبن وخبز وربما بدا لى مثل هذا الغداء أحسن مما هو عليه فعلاً على الأقل لاحساسى بأني قد أصبحت الآن مستقلاً وفي لندن ! .

ولا أدري ان كان هر برت ، يعرف قصتي عن طريق مستر جاجرز ، أو عن طريق الآنسه،هافيشام ، التي تمت إليه بصلة قربي ولكني رأيت أن أحكيها له بنفسي لذلك فقد استغرقت ساعة كاملة حكيت له فيها كل التفاصيل وعندما انتهيت ، طلبت منه أن يصحح لي عاداتى وتصرفاتى وأن يرشدني إلى طريقة الحياة اللندنية . !

وطال علينا الوقت ومازلنا جالسين إلى المائدة نتناول طعامنا ونتحدث ثم بدا هربرت ، يحكي إلى قصة حياة الآنسة هافيشام قائلاً : لقد ماتت أمها حينما كانت طفلة صغيرة وقد أهملها أبوها لكنها ورثت عنه ثروة طائلة على فكرة يا بيب ليس من المعتاد هنا في لندن أن تضع السكين في فمك أثناء تناول الطعام

فالشركة هي المخصصة لهذا الغرض هذه ملاحظة بسيطة : قال هذه الملاحظة برقة شديدة وبلطف لم يغضبني ، بل على العكس فقد شكرته على تنبيهي إلى ذلك .

وأكمل هربرت ، القصة التي كان يرويها فقال وقعت الآنسة هافيشام ، في حب رجل أنيق كان أبي لايثق فيه أبداً ولكنها أعطته مبالغ كبيرة من النقود أثناء فترة خطبتهما وفي اليوم المحدد للزفاف أرسل هذا الرجل رسالة يتنصل فيها من هذا الزواج وقد استلمت الآنسة هانيشام هذه الرسالة فقاطعته على الفور : في الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة بينما كانت ترتدي ملابس الزفاف وقال هربرت بالضبط فقد أوقفت عقارب جميع الساعات الموجودة ببيتها عند هذا الوقت ، وأمرت بعدم المساس بأي شيء من ترتيبات الحفل .

وأنت تشرب بقية ما في كأسك ، أن تميل الكأس على فمك بهذه الطريقة التي جعلت حافة الكأس العليا تمس أنفك وبسرعة أنزلت الكأس ، وشكرته على هذا

التصحيح وسألته ولكن لماذا لم يتزوج هذا الرجل من الآنسة هافيشام ، ويسيطر بالتالي على كل أموالها ؟ فقال : لا يدري أحد ولكننا نعتقد أنه كان متزوجاً بالفعل وهذا يؤكد أنه كان مخادعاً طول الوقت وأن حبه للآنسة هافيشام ، كان زائفاً.

فهززت رأسي آسفاً وأنا أقول مسكينة يا آنسة هافيشام وأقول في سري : مسكينة ايتها المحسنة الكريمة .

الفصل التاسع: زائر من الريف

وفي اليوم التالى ، حصل هربرت ، على اجازة من عمله ، لكي يصحبني إلى بيت والده ويقدمني إليه ومنذ اللحظة الأولى ، أحببت معلمي كان ذا شعر رمادي ووجه ملئ، بحيوية الشباب تعلوه ابتسامة طبيعية وكان يشبه هربرت إلى حد كبير وأفهمني المعلم أني سأتلقى دروس مع زميلين هما رستارتوب الصديق الطيب وبنتلى درامل ، الذي تبادلت معه الكراهية من أول نظرة وقد علمت فيما بعد أن درامل ، يتبادل هذه الكراهية مع معظم الناس لأنه كان يعتبر نفسه فوق الآخرين وأعلى من أن يتبادل الصداقة مع الناس العاديين كان ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية ولكن أخلاقه وطباعه كانت فظة .

ولقد قلت لصديقي : هربرت ، فيما بعد أن : درامل ، هذا يذكرني بعنكبوت كبير وأنه يثير التقزز مثل هذا العنكبوت ٠

وبدا معلمى ومستر بوكيت ، على الفور في شرح الدروس التي سأتلقاها ، وذكر الأماكن والمعالم الهامة في لندن التي يجب أن أزورها.

وفي يوم ما ، بينما كنت جالساً بمسكني في خان بارنارد رأيت أن من الأفضل أن أغير أثاث جميع الحجرات وأعيد تجميلها ، وأن يكون ذلك مفاجأة طيبة لهربرت،يجب أن أغير السجاجيد والستائر وقطع الأثاث الأخرى

وعندما أبلغت مستر جاجرز ،بتلك الرغبة ، ضحك وهو يقول : كنت على يقين بأنك لن تستغرق وقتاً طويلاً لكي تستوعب جمال الحياة في المدينة كم تريد من المال لكي تنفذ رغبتك ؟ وبينما كنت أخمن المبلغ التقريبي الذي يكفي

لعمل هذه التجديدات ، دخلت مديرة المنزل الخاص بمستر جاجرز ، لتقدم وجبة ساخنة من الطعام كانت امرأة طويلة في حوالي الأربعين ولها عينان واسعتان خابيتا النظرات وعلى الفور، لاحظت أنها غير طبيعية وأن تصرفاتها وطريقة عملها تتسم بشيء من الذلة رغم أن الطعام الذي قدمته كان لذيذاً وطيباً وعندماحددت المبلغ التقريبي الذي أطلبه نادى ، مستر جاجرز ، على مستر وميك ، وأمره بأن يصرف لى هذا المبلغ فوراً.

لقد سررت وهربرت كثيراً بالتجديدات التي حدثت بالمسكن ، وظل طيلة أسبوع بأكمله يشد على يدي كل يوم مهنئاً اياى على المنظر الجميل الفخم الذي أصبحت عليه الشقة وما أن انتهى تجميل الشقة على هذا النحو ، حتى أخبروني بأن هناك زائراً ينتظرني زائر لا يستطيع التمييز بين سجاجيدي الشرقية المفروشة على أرض الشقة ، وبين البساط الكالح القبيح المفروش بغرفة الجلوس بمنزل أختي .

كانت بيدى ، قد كتبت إلى رسالة تخبرني بأن جو ، يرغب في الحضور إلى لندن لزيارتى وكتبت لها رداً أحدد فيه الموعد المناسب لهذه الزيارة وفي حقيقة الأمر كنت لا أريد لهذه الزيارة أن تتم بل وكنت على استعداد لدفع أي مبلغ من النقود لمنع هذه الزيارة من الحدوث

ولكن كيف كان يمكن ابلاغ جو ، بكل ذلك كيف كان يمكن ابلاغه بأني لم أعد بيب ، الذي كان يعرفه ؟! .

وفي اليوم الموعود سمعت وقع خطواته وهو يصعد السلم وعندما وصل أمام الباب الخارجي ظل يمسح قدميه في الممسحة الموضوعة بعتبة الباب حتى كاد أن يبليها وأخيرا دخل وأمسك بيدى الاثنتين وأخذ يرفعهما إلى أعلى يخفضهما إلى أسفل كما لو كان يجرب نوعاً جديداً من طلمبات المياه .

وحاولت أن آخذ منه قبعته لأعلقها في المكان المناسب، وقد لاحظت أنها قبعة جديدة ولكنه تمسك بها وكأنها أثمن شي يمتلكه وظل يدور بنظرات عينية متفحصاً كل شيء وينظر في اعجاب إلى والروب ، الذي ارتديه ، وإلى قماشه الفخم الملون بأشكال الزهور ولكنه لم يتكلم كثيراً وأمسك لسانه وظل صامتاً .

وسررت عندما وصل د هربرت ، أخيراً وتبعه الخادم الذي يحمل لنا الطعام وقبل أن يجلس وجو ،إلى المائدة ، تخلى عن قبعته ، ووضعها بعناية فوق الرف الرخامي بأعلى المدفاة حيث سقطت عدة مرات إلى الأرض ، وكان يعيدها إلى الرف في كل مرة وسأله هربرت في أدب مستر جارجرى هل تريد شاياً أم قهوة ؟! .

: فأجاب جو شكراً لك يا سيدي أريد أي شي تختاره بنفسك ! .

- اذن سأصب لك بعض القهوة فظهرت ملامح عدم الارتياح على وجه جو

وقال : شكراً يا سيدي مادمت قد اخترت القهوة فلن أستطيع أن أعارضك في ذلك ولكن ألا ترى أنها تزيد الانسان انفعالاً ؟!

فقال هربرت وهو يصب له بعض الشاى : فليكن الشاي اذن .

وهنا سقطت قبعة جو ، من فوق الرف فالتقطها وأعادها إلى نفس المكان وقد لاحظت أنه كان كثير السرحان حين كان يتناول طعامه وأنه جلس على مسافة بعيدة من المائدة لدرجة أنه أسقط كمية من الطعام أكثر من الكمية التي أكلها .

وعندما انصرف هربرت ، شعرت بكثير من السعادة والارتياح لأننا أصبحنا وحدنا أنا وجو ، الذي كان يشعر بشيء من القلق وعدم الارتياح والحرج ربما لأنه أحس بما يدور بنفسي حيال هذه الزيارة .

ومع ذلك فقد بدأ جو حديثه قائلاً : والآن أصبحنا وحدنا يا سيدى فقاطعته على الفور وصحت غاضباً : من فضلك يا جو ، كيف تنادينى بياسيدى ؟ فأخفض عينيه ونظر إلى الأرض وهو يقول : لقد أخطات بالمجيء الى هنا يا بيب ان ملابسي غير لائقة أنا أنتمي الى ورشة الحدادة والفرن والمستنقعات أنا أعترف بأنه كان تصرفاً يتسم : بالغباء عندما جئت لزيارتك هنا ولكني أرجوك عندما تريد رؤية صديقك القديم جو ، فتعال إلى الورشة وأدخل رأسك في فرن الحدادة كما كنت تفعل من قبل والآن وداعاً يا عزيزى .

بيب وبارك الله فيك بارك الله فيك ولعدة أسابيع تالية ظللت أشعر بالخجل من نفسى بسبب ما حدث في زيارة جو

وقد ازداد هذا الاحساس عندما وصلتني رسالة تخبرنى بموت أختي رغم أن خبر موتها جعلني أحس بشيء من الراحة ومرت عدة سنوات إلى أن بلغت سن العشرين وفي يوم ما ، وصلتني أخبار طيبة أخبار من الماضى فقد أنبانى مستر جاجرز ، بأن ستلا ، قد عادت أخيراً من فرنسا وأنها تنوي أن تعيش في لندن وأنها تدعوني لمقابلتها يالها من أخبار عظيمة ! .

الفصل العاشر: ستلا

فاضت نفسي بأحاسيس الفرح وقمة السعادة فهأنذا سأرى ستلا ، وأقابلها مرة أخرى بعد كل هذه الغيبة وانطلقت أغني وأضحك مسرورا بكل شيء في الدنيا.

وكنت أتصور أن هربرت ، سيفرح بسعادتى الغامرة واعترفت له وأنا أشعر بشيء من الخجل بأني أحب ستلا ، واعتبرها أغلى أمنية في حياتي ٠

وكنت أعتقد أني أفضى اليه بأحد أسرارى الهامة، ولكنه تقبل اعترافى كأمر واقع معروف،وقال : اعرف ذلك ! واندهشت قلت له متلعثماً : ولكن كيف كيف عرفت ذلك ؟

فاجاب ببسالة : كان مكتوباً في عينيك وانت تحكي لي عن طفولتك وزياراتك لمنزل الآنسة هافيشام ،وشعرت باحساس غامر من السعادة والارتياح وأنا أحكي قصة حبي لصديقى هربرت ، وأبدى له اعجابي الشديد بستلا ، وجمالها الرائع الأخاذ وباحساسي الدفين داخل نفسي بأني قد لا أستحق حبها رغم أن فكرة زواجي بها تعتبر أعظم أمل في حياتي .

وكنت أظن في قرارة نفسي ، أن الآنسة هافيشام ، كانت تخطط لزواجي من سنة ، وإلا لماذا جعلت منى جنتلمان ، ووهبتنى كل هذه الثروة ؟ ووافقني هربرت ، في هذا الاستنتاج وقال انه هو وكل أقارب الآنسة هافيشام ، يظنون أن الأمر كذلك

ولكني شعرت بعدم الارتياح بأدب في نظرات عينيه ، خصوصا عندما قال : الآن يا عزيزى بيب ، أريد أن أقول لك شيئا لا يسرك .
ولكني قبل أن أنطلق بكلمة أريد أولاً أن اعترف لك بأني أعيش أيضاً قصة حب وحبيبتي اسمها كلارا بارلى، وسأرتب لك لقاء معها لكى تراها بنفسك واني أقول هذا حتى لا تظن أن لدى أي أمل أو رغبة في الزواج من ستلا.

وبطبيعة الحال فان هذا التصور لم يدر بذهنى أبداً لذلك فقد تركت هربرت ليواصل حديثه قائلاً عندما كان مستر جاجرز ، يملى عليك الشروط الخاصة بآمالك الكبرى هل ذكر ضمن هذه الشروط أن زواجك من ستلا ، أمر واجب وضرورى؟فأومأت برأسي: لا طبعاً أذن أنا أطلب منك بمنتهى الاصرار -أن تتخلى عن حبها فتساءلت وأنا أشعر باضطراب شديد من هول المفاجاة : ولكن لماذا لماذا ياهربرت ؟ فقال بهدوء: تذكر طريقة تربيتها ونشأتها تذكر أن الآنسة هافيشام ، قد جعلتها تتشبع بأفكارها ومشاعرها تذكر كيف كانت ستلا متعجرفة وباردة القلب تذكر أنها تكاد أن تكون صورة طبق الأصل من الآنسة هافيشام.

أحسست وكأني على وشك الانهيار وقلت والدموع تنهمر من عينى : ولكني لا أستطيع أن أتخلى عن حبها أبداً اني أعبدها.
وفي الحقيقة كنت أقدر مشاعر هربرت ، نحوى ومع أن أوصافه الشخصية ستلا ، قد ضايقتني إلا أنها ظلت عالقة بذهنى و كامنة في نفسي لمدة طويلة

وكنت في ذلك الوقت قد بلغت الحادية والعشرين من عمري بلغت سن الرشد فأعطاني ، مستر جاجرز ، حرية التصرف في أموالى كما سمح لي بأن أحصل على قروض محدودة وخصص لى مبلغ خمسمائة جنيه سنوياً ، كما منحنى خمسمائة جنبه أخرى كهدية من المحسن الذي يرعاني بمناسبة بلوغي سن الرشد.

وبطريقة سرية ساعدني فيها مستر وميك واستخدمت حوالي نصف هذه المبالغ في شراء وظيفة لهربرت ، في إحدى شركات الملاحة التي أنشئت حديثاً وهي شركة يمتلكها شاب ذكى أمين اسمه كلاريكار ، كان في حاجة إلى مساعد نشيط بشرط أن يساهم في الشركة بجزء من رأس المال وتعاقدت مع مستر كلاريكار، على أن تكون هذه الوظيفة من حق هربرت وقدمت إليه جزءاً من رأس المال كما التزمت بأن أقدم كمية أخرى من رأس المال في الوقت المناسب حتى يصبح هربرت ، شريكاً كاملاً في هذه الشركة .

وكان هربرت ، في غاية السعادة وهو يخبرنى بأمر تلك الفرصة ، الذهبية التي عرضها عليه مستر كلاريكار وقد اعتبرت سعادته هذه خير مكافأة لى على هذا الصنيع الجميل وحرصت دائماً على اخفاء هذا الأمر عن هربرت ، حتى لا يعرف من هو المحسن ، الذي وضعه في هذا المركز وكان هربرت يزداد سعادة في كل يوم يقضيه في عمله الجديد وفي ذلك الوقت كانت ستلا ، قد بدأت حياتها الجديدة في لندن ، وأخذت تتمتع بكل دقيقة فيها

وكانت الأنسة هافيشام ، قد رتبت أمر إقامتها مع سيدة أرملة من سيدات المجتمع لها ابنة شابة في عمر ستلا وكانت لهذه الأسرة صلات عديدة في المجتمعات الراقية ولهذا كانت ستلا ، تدعوها دائماً لمرافقتها إلى حفلات الرقص التي تدعى اليها ، ومصاحبتها في جولات الشراء التي تقوم بها .

كان من المفترض أن أصبح سعيداً بكل ذلك لكني لم أحس أبداً بطعم هذه السعادة لأن ستلا ، كانت تعاملني كأخ نصف شقيق لها أو كأني أعمل سكرتيراً في خدمتها ورغم أن الكثيرين من الشباب المعجبين بها كانوا يحسدونني على ذلك إلا أني لم أجد في ذلك أية سعادة او متعة في إحدى الأمسيات سألتني بيب هل يا ترى تصدق ما يقال لك من ضرورة الحذر منى ؟ فسالتها بالتالي : عم تقصدين تحذيرى من الانجذاب إليك يا ستلا ؟ .

فأجابت : اذا كنت لا تعرف حقيقة ما أقصده فلا شك في أنك أعمى لا ترى .

ورغم يقيني بأن الحب أعمى فقد كنت أرغب دائماً في الاعتراف لها بحبي وكنت على يقين من أنها تطيع الآنسة هافيشام طاعة عمياء لذلك فقد سئمت أن أظل هكذا عبئاً عليها وازدادت بالتالي أسباب تعاستي .

وفي نفس الأمسية أمرتنى ستلا ، بأن استعد لمرافقتها في زيارة الآنسة هافيشام التي أرسلت لها دعوة بالحضور لمقابلتها وقالت لي استلا ، انها لا تحب أن تسافر وحدها وبعد أن تناولنا الطعام على مائدة الآنسة هافيشام جلسنا جميعا جوار المدفأة وطول الوقت لم تستطع الآنسة هانيشام ، أن ترفع عينيها عن التأمل في وجه ستلا وطلبت منها بشغف أن تحكي لها بنفسها قصص ضحاياها من المعجبين الذين اخضعتهم وعلمت أن ستلا ، كانت تكتب لها يا صاحبة القلب البارد قصص هؤلاء الضحايا أولاً بأول لأني لاحظت أن الآنسة هافيشام ، كانت تعرف أسماء كل المعجبين الذين أخضعتهم ستلا ، ثم نبذتهم واحتقرتهم وعندما رأيت عيني الآنسة هافيشام ، وهما تبرقان من أثر الاستمتاع الشرير بسماع هذه الحكايات تأكدت أنها تنتقم الآن من الرجال وتأخذ بثأرها من الرجل الذي تخلى عنها في يوم عرسها وجذبت الآنسة هافيشام ، يد ستلا وقربتها منها ولكن ستلا ، جذبت يدها في ضيق بطريقة أغضبت الآنسة هافيشام التي صاحت باكية ستلا هل تعبت مني ؟!

فأجابت بهدوء تام : لقد تعبت من نفسي فصرخت فيها المرأة العجوز وهي تهز عصاها : ما أنت إلا تمثال من حجر لا قلب له فردت ستلا بنفس الهدوء أنت التي علمتيني أن أصبح بلا قلب ولقد حذرتينى من الوقوع في الحب فبكت الآنسة هافيشام وهي تقول :عم تصبحين بلا قلب ولكن ليس ضدي أنا بل ضد الرجال فقط يجب أن تبادليني ما أشعره نحوك من حب .

وعندئذ هزت ستلا ، رأسها وهي تقول في أسى : يا أمي بالتبني إني مدينة لك بكل شيء وسأفعل كل ما تطلبين ولكني لا أستطيع أن أفعل المستحيل لقد علمتيني كيف أجعل قلبي بارداً كالحجر علمتينى كيف لا أحب أحداً ولقد وعيت دروسك جيداً.

ولم أستطع مشاهدة بقية هذا المشهد الغريب فتركت الحجرة وخرجت إلى المدينة ومع ذلك فقد كانت توسلات الآنسة هافيشام ، الذليلة تصل إلى سمعى.

الفصل الحادي عشر اكتشاف شخصية المحسن

انقضت عدة شهور بعد انتهاء الاحتفال بعيد ميلادى الحادي والعشرين وأحسست بأني قد أصبحت عاجزاً تماماً عن حل المشكلة التي صنعتها بنفسي كنت أرغب في التحرر من ديونى والاعتماد فقط على مبلغ الخمسمائة جنيه التي يهبها لى المحسن الكريم ، في كل سنة والحقيقة أن ديونى كانت كبيرة وكثيرة فبالاضافة إلى التزامى بدفع المبلغ الكبير الخاص بالعقد الذي اتفقت عليه لصالح هربرت كانت على ديون أخرى بيب يسمع خطوات على السلم للخياط ولبائع المشروبات وللجواهرجي ولكثيرين غيرهم.

والأمل الوحيد الذي كان يراودني للتخلص من هذه المشكله هو أن يقوم المحسن الدي يرعاني باهدائى مبلغاً اضافياً في كل عيد من أعياد ميلادى وبهذه الطريقة وحدها ، أتمكن من تسديد ديونى ، والاستمرار في الحياة الرغدة التي أحياها .

وعندما بلغت سن الثالثة والعشرين ، أصبحت أضحك ساخراً من بيب ، الذي كان يظن عندما وصل إلى سن الحادية والعشرين ، أن مبلغ الخمسمائة جنيه سنوياً كان يعتبر ثروة طائلة ولم أفكر مطلقا في بيب ، الذي كان يعيش في مقاطعة كنت ، ويظن أن مهنة الحدادة التي يمارسها هي أفضل وظيفة في هذا العالم .

لقد توقفت عن تلقي الدروس ولكني واصلت القراءة والاطلاع لعدة ساعات يومياً وفي احدى الليالي هبت عاصفة باردة شديدة منعتني من الخروج ، ولزمت البيت واستغرقت في القراءة كنت وحدي لأن هربرت ، كان قد سافر في مأمورية تخص عمله بالشركة الملاحية ودقت ساعة كاتدرائية سان بول ، القريبة الحادية عشرة قبل منتصف الليل ، فقطعت حبل استغراقى في القراءة ثم تنبهت فجأة إلى وقع أقدام تروح ويغدو في الممر الخارجي أمام الباب ونظراً لأن الريح الشديدة قد أطفأت كل المصابيح واللمبات التي تضيء السلم والممر فقد حملت مصباح القراءة وفتحت الباب .

تبين الأمر وما أن سطع ضوء المصباح في ظلام الممر، حتى توقفت الخطوات فصحت قائلاً : من هناك وماذا تريد؟فجاءني صوت رجل أخذت أتبين ملامحه بالتدريج في ضوء المصباح : أنا هنا يا سيدي أبحث عن مستر بيب وما أن رآني هذا الرجل الغريب ، حتى تهللت أسارير وجهه وبدا عليه السرور كان يرتدي ثياباً جديدة ولكنها خالية من الذوق وكان ذا شعر رمادى طويل ويبلغ نحو الستين من عمره ،إلا أن جسمه كان يبدو قوياً مفتول العضلات وعندما أصبح قريباً منى مد إلى يديه اللتين لفحتهما الشمس ولم أدر ماذا أفعل الا اني قلت بكثير من الثبات : أنا وبيب ، ماذا تريد مني؟ .

وصمت الرجل الغريب برهة وكأنه كان يتوقع أن أدعوه إلى الدخول وتردد وهو يقول : آه أريد أن أشرح لك بعض الأمور فاضطررت إلى دعوته للدخول بطريقة جافة

وكنت مندهشاً من فيض الاحساس بالسعادة الذي غمر هذا الرجل الغريب بمجرد أن رآني وعرف من أنا وما أن وصلنا إلى غرفة الجلوس حتى ابتسم الرجل الغريب ابتسامة راضية مطمئنة ومد إلى يديه مرة أخرى حتى ظننته مجنوناً لذلك فلم أمد اليه يدي فشعر الرجل بالاحراج وتلعثم وهو يقول: آه لقد فهمت وأنت غير مخطيء في هذا على الاطلاق ولكن أرجو ألا تشعرني باليأس بعد أن قطعت رحلة طويلة حتى أراك وألقاك .

وخلع الرجل قبغته ومعطفه ، وجلس على مقعد جوار المدفاة ، ومد يديه إلى النار ليدفئهما ونظر إلى قائلاً : ألا يوجد أحد هنا غيرنا ؟ فقلت بغضب : بأي حق تسألني هذا السؤال وما أنت إلا رجل غريب لا أعرفه اقتحم بيتي في هذا الوقت المتأخر من الليل .

فهز الرجل رأسه مبتسماً وقال : أنت رجل شجاع يا بيب أنا مسرور لأنك قد أصبحت شجاعاً إلى هذا الحد وفي لمح البصر ، سطعت بذهني فكرة كالبرق لقد عرفت الرجل انه السجين الهارب الذي قابلته بين المقابر في ساحة الكنيسة التي تطل على مستنقعات كنت وعندما شعر الرجل أني قد عرفته ، مد إلى يده مرة أخرى فمددت اليه يدى مستسلماً هذه المرة وفي الحال رفع الرجل يدي إلى فمه وأخذ يقبلهما معبراً عن الاعتراف بالجميل وقال : لقد كنت نبيلاً وكريم معي يا بني وسأظل أذكر أبداً بيب النبيل أذكر دائما بيب النبيل الكريم الذي قابلته يوماً ما في الماضي البعيد وعندما أوشك أن يحتضنني ، وضعت يدي على صدره ودفعته بعيداً عني

وقلت له بحزم : اذا كنت قد جئت الآن لتشكرنى بعد هذه المدة الطويلة فان ذلك غير ضروري ولا أهمية له واذا كنت قد ساعدتك وأنا طفل صغير ، فلعلك قد اخترت لنفسك طريقاً صالحاً وحياة أفضل من حياتك السابقة وعلى أية حال فأنا لا أستطيع أن أوفر لك الآن أية حماية !

صمت الرجل طويلاً وأخذ يدور بعينيه في أنحاء الغرفة ، إلى أن استقرت نظراته على زجاجات الشراب المرصوصة على رف جانبي وعندئد قلت له لا بأس في أن تتناول كأساً من الشراب ليدفئك قبل أن تنصرف ٠

وجلس الرجل على المقعد مرة ثانية وقال : شكراً لك أريد كأساً من الوسكى صببت له كأساً وصببت لنفسى كأساً آخر وقلت له بلا اهتمام :هاه كيف كنت تعيش في كل تلك السنوات الماضية ؟ .

فقال بهدوء : لقد عشت حياة ناجحة في نيو ساوث ويلز في استراليا ، وامتلك الآن مزرعة وقطعاناً من الغنم ولكن هل لي أن أسألك بدوري عن مجرى حياتك منذ أن تقابلنا و نحن نرتعش من البرد في مستنقعات كنت .

واضطررت مكرها أن أعطيه ملخصاً وجيزاً عن مجرى حياتي وبعد أن انتهيت من ذلك قال الرجل بهدوء أستطيع أن أخمن مقدار دخلك منذ أن بلغت سن الرشد انه مبلغ يقدر بخمسمائة جنيه سنوياً أليس كذلك ؟ .

كان يوجه نظرات ثابتة نحو عينى ورغم صوته الهادىء كنت أحس أن كلماته تدوى كالصرخات داخل كيانى وأخذت ارتعد وقال الرجل مواصلاً حديثه

وأستطيع أن أخمن أيضاً أنك تحصل على هذا الدخل من خلال رجل يعمل بالوساطة رجل يبدأ اسمه بحرف ج أليس كذلك ؟

ولم أستطع الكلام وشعرت كأني سأختنق واستندت على طرف المائدة وواصل الرجل حديثه : في الواقع ان اسم الرجل الواسطة هو جاجرز ، واسم كاتبه هو وميك أليس كذلك ؟ وأخذت رأسى تلف وتدور وكدت أتهاوى وأنا أحاول الجلوس على الأريكة وساعدني الرجل على الجلوس وركع على إحدى ركبتيه أمامي وهو يقول : نعم يا بيب، يا بني العزيز لقد جعلت منك جنتلمان حقيقياً أنا الذي فعلت كل هذا من أجلك وعندما بدأت اكسب الملاليم، أقسمت أن يذهب كل ما أكسبه إليك ثم عندما بدأت أكسب الجنيهات أقسمت مرة أخرى أن أحرم نفسي من لذائذ الحياة لأوفر لك ما يساعدك على أن تستمتع بحياة رغدة وبدأت ارتعد خوفاً منه كما لو كان قد تحول إلى وحش وواصل حديد بنفس الهدوء والفرح : انك أعز على من ابن حقيقى يا بيب وكم من الليالي التي كنت أقضيها مفكراً فيك في وحدتى البعيدة وعندما كنت أتناول طعامي في تلك العزلة بعد الانتهاء من عملي في رعي الغنم كنت أتخيل وجهك الصغير عندما كنت طفلاً وأنت تنظر إلى عندما كنت أتناول الطعام والشراب الذي أحضرته إلى في المستنقعات لذلك اقسمت مرة أخرى أن أجعل منك جنتلمان ، وهأنذا قد نجحت في ذلك .

وأخذ ينظر بفرح الى السجاجيد الشرقية وإلى اللوحات الجميلة المعلقة على الحوائط والى ملابسي الأنيقة والى جوهرة الياقوت في خاتم اصبعي وإلى الكتب المرصوصة على الرفوف ولم أنطق بكلمة واحدة ربما لأني كنت عاجز عن الكلام وواصل الرجل حديثه: لقد حققت بعض النجاح والشهرة في نيو ساوث ويلز باستراليا رغم أن بعض الناس كانوا يعايرونني بالماضي حين كنت سجينا ولكني لم أكن أهتم بذلك كنت على يقين باني امتلك جنتلماس ، عظيماً مثلك أعظم وأرقي من أي واحد فيهم وكنت احتمل كل شيء ، على أمل واحد هر استطاعتي أن أعود في يوم ما لكى أراك وأقابلك لأعرفك بنفسي ووسط كل احساسه بالزهو والفخر وهو يقول هذا الكلام لم يلحظ الرجل مدى الاحساس بالرهبه الذي أخذ يعصف بنفسي ولا مدى البؤس الذي كان يمزق قلبي وأنا أنصت إلى حديثه وأخيراً سألني وهو يتثاءب : والآن يا بني العزيز أين يمكنني أن أنام بعد أن قمت بتلك الرحلة الطويلة التي تحيطها المخاطر ؟ .واستعدت صوتى وقدرتي على الكلام وقلت مستسلماً : يمكنك أن تنام على سرير زميلي الغائب ولكن ماذا تقصد بالضبط بكلمة مخاطر ؟! .

فقال بهدوء وبساطة : أن السلطات ستنفذ في حكم الاعدام شنقاً لو اكتشفت أني قد عدت إلى لندن وتبددت الأحلام في لهيب المدفأة وعلى الفور أسدلت جميع الستائر، وأدخلته إلى حجرة هربرت ، وأنا أشفق عليه لمجازفته الجريئة واستعداده للتضحية بحياته لكى يرانى وأشفق أيضاً على نفسي لأني لم أستطع أن أشعر نحوه بأي قدر من التعاطف .

وقبل أن أغادر الغرفة سألته : وهل قمت وحدك بهذه المجازفة أم ساعدك فيها شخص آخر ؟ فقال مندهشاً : لا يا بني العزيز لقد قمت بها وحدى.

وهكذا تبددت جميع أحلامي وتصوراتي السابقة في حكايتي مع ستلا وهكذا تبين لي أن خطة الآنسة , هافيشام ، لزواجي من ستلا ، كانت وهماً مفجعاً وأكذوبة كبرى أقنعت بها نفسي دون أساس وهكذا تيقنت من حقيقة مركزى بالنسبة لستلا لم أكن أكثر من مرافق مفيد لها تلعب بعواطفى بقسوة تعلمتها من المرأة العجوز وظللت أتأمل النار الخابية في المدفأة ، حتى ظهر نور الصباح وأنا أشعر بمنتهى البؤس وخيبة الأمل .

الفصل الثاني عشر

مساعدة أبيل ماجويتش آبيل ماجويتش ، هو اسم السجين الهارب المحسن الذي تبرع لي بكل هذه الأموال وكان قد تعرف على مستر جاجرز ، المحامي حين كان هذا الأخير يتولى الدفاع عنه في قضيته وقد بذل مستر جاجرز ، جهده في الدفاع عنه حتى أنقذ عنقه من حبل المشنقة بشرط واحد هو أن يهاجر من انجلترا إلى الأبد ويعيش في نيو ساوث ويلز باستراليا ، بقية حياته .

ولكن عودته إلى انجلترا خلقت الكثير من المشاكل وقد رأيت أن أحل هذه المشاكل واحدة وراء الأخرى بادئا بأخطار صاحبة خان بارنارد بأن هذا الرجل هو خالي وقد حل ضيفاً على لعدة أيام أما بالنسبة لقرب عودة هربرت فقد كان من اللازم أن أبحث عن سكن آخر مناسب الاختفاء ماجويتش

وفي صباح اليوم التالى ، تناول في افطاره كمية كبيرة من الطعام باستمتاع واضح ، ثم جلس على الأريكة وأشعل غليونه بعد أن حشاه بطباق أسود كريه الرائحة وبعد أن دخن بضعة أنفاس قال بارتياح بيب ، لابد أن تشتري لنفسك عربة وخيولاً تجرها ، وأن تستأجر سائقاً خاصاً يقودها لك وأخرج من جيوب معطفه حافظة جلدية كبيرة منتفخة بالنقود ووضعها أمامي على المائدة وهو يقول : إليك بهذه النقود كلها وهناك نقود كثيرة غيرها ولك أن تنفقها فيما تراه وكيفما تهوى tقمة سروري أن أراك تنفق أموالك بالطريقة التي تعجبك كجنتلمان

فرفعت يدي معترضاً لأسكته وقلت : ليس هذا هو ما يجب أن نتحدث فيه الآن ان علينا أولاً أن ندبر طريقة تجعلك آمنا طوال فترة بقائك هنا ولكن أريد أن أعرف أولاً موعد رحيلك فنظر إلى مندهشاً وقال : لماذا يا بني العزيز لقد جئت لأبقى بصفة مستمرة سأتنكر وأصبغ شعري وأضع على عيني نظارة طبية وارتدي ملابس أنيقة وبهذه الطريقة لن يتعرف على أحد واقترحت عليه أن يتنكر في ملابس مزارع من الريف لأن هذا المظهر يناسب لون بشرته انتي لفحتها الشمس فوافق .

ولكن قبل أن أذهب لأشتري هذه الملابس ، عرجت على مكتب مستر جاجرز ، الذي ما أن رآني حتى تبادل النظرات مع كاتبه مستر وميك ، ثم هب واقفاً وحلرني قائلاً : قل ما تريد بدون ذكر أسماء ! .

ففهمت ما يقصده وسألته : حاضر يا مستر جاجرز ، لقد جاء نى زائر من نيو ساوث ويلز باستراليا ، وهو يقول أنه المحسن ، الذي وهبنى كل هذه النقود فهل هذا صحيح ؟

فاجاب : هذا صحيح بالفعل .

فقلت يائساً : لقد كنت أظن دائما أن الآنسة هافيشام ، هي التي تحسن إلى وترعانى وقد شجعتني أنت على هذا الظن الخاطيء فاعرض جاجرز قائلاً : لا لم أشجعك أبداً على ذلك وربما كانت الآنسة هافيشنام ، تشجعك على تصور هذه الفكرة الخيالية كنوع من التسلية ترضى بها عقلها المريض الآن فقط تيقنت دون أدنى شك من أن آبيل ما جويتش هو نفسه المحسن

الذي كان يهبني المال فأسرعت إلى البيت، واستأجرت له سكنا مجاوراً سكنى واشتريت له بعض ملابس المزارعين ليتنكر فيها.

وفي تلك الليلة نام على مقعده وهو في كامل ملابسه الجديدة وأخذت أنظر اليه وأنا مضطرب القلب مشتت الذهن وخيل إلى أن أفضل حل لهذه المشكلة أن أجري خارجاً من الغرفة ومن البيت ومن لندن بل ومن انجلترا كلها ولكن لم يكن أمامي سوى أن انتظر عودة صديقي هربرت ، من رحلته لنتدبر الأمر سوياً وينصحني بما أفعل ولكن ماجويتش ، لم يسمح لي بأن أفشى سره لصديقى هربرت ، قبل أن براه ويتأكد بنفسه أنه محل ثقة وبالفعل فلم تمض نحو خمس دقائق على حضور هربرت ، حتى أومأ لي ماجويتش برأسه موافقاً ولكنه أحضر نسخة قديمة من الكتاب المقدس.

وبعد أن عرف هربرت ، كل شيء خرج ماجويتش ، إلى سكنه المجاور وبقيت أنا وهربرت، وظللنا نتحدث إلى ما بعد منتصف الليل وشرحت لصديقي كل المشاعر التي تعتمل في قلبي ، وكل الأفكار التي تدور في ذهنى إلى أن انتهيت إلى اتخاذ قرار حاسم : لن أخذ من ماجويتش ، مليماً واحداًص بعد الآن حتى بالرغم من أني غارق في الديون فهز هربرت ، رأسه معترضاً وقال : أنا أفهم وأقدر حقيقة مشاعرك يا بيب ولكنك ان فعلت ذلك فسوف تدمره تدميراً لقد عاش حياته كلها من أجلك وجمع أمواله كلها من أجلك وانى أعتقد أنه على استعداد أن يضحي بحياته ويسلم نفسه للسلطات إذا رفضت أن تشتري العربة والخيول .

وفرت الدموع من عيني وقلت منفعلاً : لا يا هربرت لن تستمر علاقني به ولن أنفق نقوده بعد الآن كل ما أريده وأتمناه هو أن يرحل عني ! .

وهنا قال هربرت اذا كنت لا ترغب في تحمل مسئولية القبض عليه واعدامه فلابد أن تقنعه و تحثه على مغادرة انجلترا

قلت يائسا : لن يقبل ذلك فقال هربرت : اذن فلا بد أن تسافر معه فشعرت بالصدمة عندما فوجئت بهذا الرأي لكن هربرت ، واصل حديثه : نعم سافر معه الى الخارج ، وهناك تنر كه في أي بلد آمن وتعود إلى انجلترا وسأدبر لك وظيفة لتعمل معي في شركة كلاريكار .

وبينما كنت أدبر هذه الترتيبات كلها ، وصلتني دعوة من ستلا للحضور إليها وقالت بمنتهى البرود : أنا في طريقي إلى الزواج في أقرب فرصة واني أحذرك وانت تعرف ما أقصده وعندما عرفت أن عريسها هو بننلى درامل ، العنكبوت الكريه الذي يثير اشمئزازى اعترضت على هذا الاختيار بكل قوة.

ولكن ستلا ، هزت كتفيها باستخفاف وقالت دون أدنى تقدير لاعتراضى : انها صفقة جيدة فهو غنى واسع الثراء وأنا قررت أن أتزوجه.

فهمست لها الآنسة هافيشام : حتى ولو كان كذلك يمكنك أن تحطمى قلبه ألا تستطيعين ذلك ؟ وأطاعتها وجلسنا على الأرض لنلعب الورق ولكني لم استطع أن أركز ذهني في اللعب بسبب الملاحظات الكثيرة التي كانت تبديها وستلا ، للآنسة , هانيشام ، كانت تقول باشمئزاز واضع: أن يديه خشنتان وحذاءه

وكانت الآنسة . هافيشام ، تجلس هامدة كالجثة وهي تراقب اللعب وأخيرا انحنت نحوي وقالت لي : ان ستلا ، قالت عنك أشياء كثيرة غير طيبة وانت الم تقل عنها أي شيء ما رأيك فيها اخبرنى .

وازاء هذا الاصرار من الآنسة هافيشام ، اضطررت أن أهمس في أذنها قائلا ستلا ، فتاة جميلة فخورة بنفسها ولكنها كثيرة الشتائم هل يمكنني أن أنصرف الآن ؟! .

ولكن الآنسة هافيشام ، لم تسمح بانصرافى قبل أن اكمل جولة ثانية من اللعب ، ثم أمرتنى بالانصراف على أن أعود اليها بعد ستة أيام

الفصل الثالث عشر : القاتلة .

بعد أن انتهى هذا الحديث المؤلم مع ستلا أخذت أتجول بلا هدف في شوارع لندن شقياً تعيساً يمزق اليأس قلبي .

وبالرغم من أن حالتي المالية لم تعد تسمح لي بمواصلة التفكير في احتمال زواجي من ستلاإالا أن احساسى بالمرارة قد فاق كل احتمال لأن اختيارها قد وقع على درامل ذلك العنكبوت الكريه بالذات وحتى عندما قالت لي ستلا وهي تبتسم لي ابتسامتها الساخرة : اياك أن تظن أني سأجعل منه زوجاً سعيداً فان هذا القول لم يسعدني أو يواسينى وعدت إلى بيتي في وقت متأخر وما أن فتحت الباب حتى فوجئت بشخص غريب يهب واقفاً من المقعد المجاور للمدفأة كان يبدو كما لو كان قد أفاق من اعفاءة النوم وفي لحظة ، تبينت أنه مستر وميك الذي سرعان ما وضع اصبعه أمام شفتيه طالباً مني أن ألزم الصمت وأشار إلى أن أقترب منه قال هامساً معذرة يا مستر بيب ، لهذه المفاجأة لقد أعطانى مستر هربرت المفتاح لانتظرك هنا لأقول لك بعض الأخبار الهامة ولكن بدون ذكر أسماء كما تعرف أسرعت نبضات قلبي ، وسألت هامساً : هل حدث مكروه ؟ فقال وميك نعم ولا فخلعت قبعتى ومعطفي على الفور، وجلست بجوار وميك ، الذي بدأ حديثه بصوت خفيض : لعلك لاحظت أن مستر جاجرز ، المحامي له زبائن وعملاء من مختلف أنواع الناس ولكن أغلبهم ليسوا من الطبقات الرفيعة

وبطبيعة الحال ، فان شخصا مثله تأتيه أخبار لا أستطيع أنا أو أنت الحصول عليها لأن أغلبها يدور في المجتمعات الوضيعة أو يتردد بين أصدقائه من المجرمين فأوشكت أن أعترض على هذا التعليق ولكني آثرت الصمت لاستمع إلى بقية الحديث وواصل وميك كلامه واحد من هؤلاء الناس الذين يترددون على المجتمعات الوضيعة ، سمع اشاعة معينة قام بابلاغها إلى مستر جاجرز اشاعة ينشرها شخص اسمه كومبايسبون ، مفادها أن في لندن الآن زائراً جاء من نيو ساوث ويلز ومن المتوقع أن يصل هذا الخبر إلى السلطات في أية لحظة. شحب لون وجهي على الفور، وشعرت بقشعريرة البرد رغم قربي من نار المدفأة وقلت وأنا أكاد أبكى: لا يمكن لا يمكن أن يقبض عليه لا بد من عمل أي شيء.

قال وميك هذا صحيح لذلك فقد اتفقنا أنا ومستر جاجرز على أن أقوم أنا ومستر هربرت ، بنقل هذا الزائر من سكنه المجاور ، إلى سكن آخر في بيت يطل على النهر وقد تصور مستر جاجرز ، أنك ربما تكون موضوعاً تحت المراقبة أو أن شخصاً ما قد يتتبع خطواتك حتى يمكنهم التعرف على مكان هذا الزائر لذلك فقد تم نقل الزائر في غيبتك وهذا أفضل لكن لا بد من اتخاذ بعض الترتيبات الأخرى فقلت : أعرف ذلك لا بد من نقله إلى خارج لندن لقد فكرت في ذلك بل وسأسافر معه الى الخارج اذا لم يقبل أن يسافر وحده .

قال وميكعظيم ولكن هذه الترتيبات لا بد أن تتم بأقصى سرعة ممكنة ولابد أيضاً من وضع الخطط المحكمة لكي يتم التنفيذ بدقة وفي أمان ان مستر جاجرز يصر على ذلك وسيظل على اتصال بك للتنفيذ في الوقت المناسب وهناك شيء آخر على درجة كبيرة من الأهمية يجب ألا تذكر اسم كومبايسون أمام الزائر بأي شكل من الأشكال لأن الزائر لو عرف أن كومبايسون هذا موجود هنا في لندن ، فسوف يتعقبه ولن يتر كه إلا بعد أن يقتله ! .

وبعد انصراف وميك ، جلست أمام المدفأة أتأمل شعلات اللهب وأتخيل الكيفية التي يجب أن يتم بها تهريب ماجويتش ، إلى الخارج واختلطت في ذهني الأفكار والخطط وقطع حبل أفكارى وصول هربرت ، الذي جاء تواً من عند حبيبته كلارا ، التي تعيش مع أبيها المريض المتقاعد في بيت يطل على النهر حيث يجلس الأب العجوز أمام النافذة ليتفرج على السفن القادمة والسفن المغادرة وهنا طرأت في ذهني فكرة توهجت مثل البرق فقلت لهربرت هذا هو البيت المناسب منه نستطيع أن نركب قارباً يوصلني أنا وماجويتش ، لأية سفينة مسافرة إلى الخارج وهناك بعض قباطنة السفن على استعداد لعمل أي شيء مقابل الحصول على نقود ودون أن يسألوا أي سؤال وتحمس هر برت ، لفكرتي على الفور ، وأضاف إليها فكرة جديدة فقال اذن يجب أن تشترى قارباً نضعه قرب البيت ويجب أن نقوم أنا وأنت بالتجديف لنتجول في النهر كل يوم حتى يعتاد الناس على رؤيتنا في هذا القارب إلى أن يجيء اليوم المحدد للهرب فنركب القارب كالمعتاد وتتم العملية دون أن نلفت نظر أحد .

وفي اليوم التالي اشتريت قارباً وبدأنا التمرن على التجديف بطريقة صحيحة وفي البداية لم نستطع أن نواصل التجديف إلى وقت طويل فقد كانت عضلاتنا في حاجة إلى التليين حتى تعتاد عملية جذب المجداف وأعدت مع هربرت ، حافظة النقود التي تركها ماجويتش ، في بيتي ، وطلبت منه تسليمها اليه ثم قررت بعد ذلك أن أزور مأجويتش ، في مقره الجديد فسلكت طرقاً جانبية كثيرة لتضليل أي شخص يتعقبني .

وعندما وصلت إلى البيت رأيت كلارا برلى ،لأول مرة كانت فتاة حلوة ذات وجه مستدير جميل التقاطيع وهنأت هربرت ،على حسن اختياره فأحس بسعادة غامرة وهو يسمع ثنائي على حبيبته كلارا٠

أما ماجرينتش فلم يتقبل بسهولة فكرة نقله من مسكنه السابق واسكانه في هذا البيت الذي يطل على النهروكذلك فقد أقنعته بصعوبة بأن الوقت الآن غير مناسب لشراء العربة والخيول حتى لا نلفت أنظار الناس ولكنه اعترض بشدة على فكرة تهريبه إلى خارج لندن إلى أن أفهمته أني سأكون في صحبته في تلك الرحلة وعندئذ فقط استسلم ووافق على كل شيء وطوال وقت الزيارة ، كان ماجويتش ، يمسك يدي بكلتا يديه وبحنان بالغ ولم يتركها إلا بعد انتهاء الزيارة وتأهبي للانصراف وبطبيعة الحال، لم أعبر له عن نيتى في تركه في أي مكان آمن خارج انجلترا والعودة بعد ذلك وحدي .

وساءت حالتي المالية إلى أقصى حد فاضطررت عندئذ إلى بيع بعض مجوهراتي ومع ذلك فان ثمن البيع لم يكن كافياً للوفاء بجميع التزاماتي

لذلك فقد قررت أن أتخذ خطوة جرينة ،وان كنت لا آمل كثيراً في نجاحها قررت اللجوء الى الآنسة هافيشام لاقناعها بدفع الحصة المتبقية المنصوص عليها في العقد الذي أبرمته مع كلاريكار ، لصالح هربرت وقبل أن أذهب إلى محطة عربات السفر عرجت الى مكتب مستر جاجرز ، لأطلعه على تلك الخطة التي دبرتها لتهريب ماجويتش ،فوافق عليها ولكنه أضاف : لا تكن قلقاً إلى هذا الحد اطمئن فان خير مكان الاختباء هو مدينة كبيرة واسعة مثل لندن.

وما أن أوشك حديثى مع ، مستر جاجرز ، على الانتهاء ، حتى دخلت الخادمة ، وهي تحمل صينية عليها غداء ساخن ووضعتها على مائدة صغيرة وقد لاحظت أن موللى ، كانت منخفضة رأسها وتنظر دائماً إلى الأرض .

ولكن عندما نهضت من مقعدى متأهبا للانصراف اصطدمت يدي بحافة الصينية فاهتزت، وسالت بعض الشوربة على مفرش المائدة فرفعت د موللى رأسها ونظرت إلى بغضب ورغم أن تلك النظرة لم تستمر أكثر من ثانية واحدة الا أني قد صعقت فقد كان هناك شبه تام بين نظرات عينيها الغاضبة ، ونظرات عينى ستلا ، حين تغضب نفس الأنف نفس الخدين كل ملامحها مطابقة تماماً لملامح ستلا وقبل انصرافى من مكتب مستر جاجرز ، قابلت مستر وميك ، في المكتب الخارجي وانتحيت به جانبا وسالته : من هى و مولى فقال هامساً ، قاتلة انها فاتنة كان مستر جاجرز، يتولى الدفاع عنها وحصل لها على حكم بالبراءة كانت غيرتها على زوجها هي السبب في الجريمة التي ارتكبتها وقيل أيضاً أنها قتلت طفلتها !

الفصل الرابع عشر

وبينما كانت عربة السفر تقطع الطريق إلى بيت الآنسة هافيشام ، كنت أفكر بعمق في القصة التي ائتمنني عليها وميك ،. فالخادمة موللى ، تنتمي من بعيد الى أصل غجرى ولذلك تجري في عروقها بعض الدماء الحارة وعندما تصورت أن زوجها يخونها مع امرأة أخرى خنقت تلك المرأه على الفور ويقال انها لكي تنتقم من زوجها فانها قامت بقتل ابنتها منه .

ولكن هذا غير صحيح فمازالت ابنتها حية انها ستلا بنفسها ان الشبه تام بين عينيها وعيني ابنتها مولى ، اذن هي أم ستلا لا شك في ذلك ومن المحتمل أنها وضعت نفسها في خدمة مستر جاجرز ، طوال هذا الزمن لأنه أنقذ ابنتها من الفقر والضياع .

وعندما قابلت الآنسة هافيشام ، لاحظت أنها أصبحت أكثر عجزاً وضعفاً من ذي قبل ومع ذلك فقد أنصتت بهدوء وأنا أشرح لها المساعدة التي قدمتها سراً لمعاونة هربرت ، على شق طريقه في الحياة وسوء حالتي المالية التي لا تسمح إلى الآن بتسديد الحصة المتبقية التي حل موعدها طبقاً للعقد وأخبرتها أني في حاجة إلى تسعمائة جنيه حتى أستطيع الوفاء بهذا الالتزام .

ظلت الآنسة هافيشام، تنظر في نار المدفأة و هي تستمع إلى هذا الطلب ثم قالت بصوت حالم و كانه يأتي من بعيد : أن هربرت ، يستحق العون أن أباه ماثيو بوكيت ، قدم إلى في يوم ما نصيحة غالية ولكن للأسف لم آخذ بها ففقدت سعادتى وعشت حياة تعسة شقية ليتني استمعت الى تلك النصيحة الغالية ! .

ثم استدارت نحوي وقالت بحدة : اذا أعطيتك هذه النقود فهل تعدني بأن يظل هذا السر خافياً على كل من هر برت ، وأبيه ؟! .

فوافقت، وأعطيتها وعداً بذلك، فكتبت خطاباً إلى مستر جاجرز ، ليعطيني هذه النقود من حسابها فأخذت الخطاب وشكرتها على كل شيء وعندما هممت بالانصراف نادتني بصوت مرتعش بيب هل ترى كم أنا وحيدة الآن - هل ترى كيف هجرتنى ستلا ؟! فأجبت بهدوء : كان لا يمكن أن ينتهي الأمر بغير هذه الطريقة وكنت قد امتنعت عن قراءة الصحف في الفترة الماضية ، حتى لا أصدم بقراءة أي خبر عن موعد زفاف ستلا ومع ذلك فقد سألت الآنسة هافيشام متردداً : هل تم الزواج ؟

فأومأت برأسها وقالت بحسرة : نعم !

وفي الحال تبدى الألم في ملامح وجهي وأحسست بأن قلبي يتمزق في صدري ومع ذلك فقد لاحظت أن الآنسة هافيشام ، أخذت تلهث وتتنهد . وسقطت عصاها من يدها وقالت بصوت يرتعش أرى في وجهك الآن يا بيب نفس مشاعر الألم التي تبدت في ملامح وجهي منذ سنين طويلة في الساعة التاسعة الا عشرين دقيقة !

وخبأت وجهي بين يدي حتى أستعيد رباطة جاشي وظلت الآنسة هافيشام ،تنوح وتبكى بحرقة وتهز رأسها بحركة دائبة يمنة ويسرة وتقول والندم يعصر قلبها : ما هذا الذي فعلت ما هذا الذي فعلت ؟ وأوشكت أن أقول لها أنها خربت حياتى وحطمتنى .

ولكتي امتنعت لأن ذلك لا يعدو أن يكون نصف الحقيقة أما النصف الآخر فيتمثل في الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها بنفسي وفي الأحلام الغبية التي كانت تدور في خيالي وفي الطموحات السخيفة التي كنت أتطلع إليها وفي الآمال العديدة الحمقاء التي كنت أسميها الآمال الكبرى .

ولكنها مدت إلى يديها المرتعشتين وقالت متوسلة والدموع تطفر من عينيها : سامحني يا بيب أرجوك سامحني ! .

وأمسكت بيديها وقلت : لقد سامحتك وغفرت لك ! .

فقالت وهي تضغط على يدي راضية : لم أكن أضمر شراً منذ البداية كنت أريد فقط أن أهيىء لستلا ، مستقبلاً لا تعاني فيه ما عانيت ولكنها كلما كانت تكبر كانت تزداد جمالاً وكنت أثنى على جمالها باستمرار وأعطيها المجوهرات لتتزين بها وتزداد تألقاً وكنت أحذرها دائماً من الوقوع في الحب حتى أصبح قلبها جامداً كالثلج سامحنى يا بيب سامحني .

وسحبت مقعداً وجلست جوارها وسألتها بهدوء : من هي ستلا ، في الحقيقة ابنة من هي ؟

فهزت رأسها وقالت : لا أدري كانت مجرد فكرة عابرة طرأت في ذهني يوماً ما قلت لنفسي لماذا لا أتبنى طفلة صغيرة لأمنحها حبي وأهيىء لها مستقبلاً لا تلقى فيه مثل مصيرى وطلبت من مستر جاجرز أن يبحث لي عن طفلة ، فوعدني بأن يحضر الى طفلة يتيمة وفي يوم ما جاء ومعه الطفلة التي وعد بها كانت صغيرة لا تتجاوز العامين فتبنيتها وأطلقت عليها اسم ستلا ثم سكتت طويلاً وأغمضت عينيها وغلبها النعاس ودخلت في اغفاءة نوم خفيفة وهي جالسة على مقعدها أمام المدفأة فسحبت نفسي بهدوء وخرجت من الحجرة وهبطت درجات السلم وتجولت قليلاً عبر الممرات والردهات والحجرات إحساسي بأني أشاهد هذا البيت لآخر مرة في حياتى وفجأة دوت في أذنى صرخة ملتاعة عالية .

فجريت نحو مصدرها وصعدت درجات السلم بسرعة فرأيت حريقاً قد نشب في حجرة الآنسة هافيشام ، التي اندفعت نحوي ، والنار ممسكة بطرحتها وثياب زفافها فخلعت معطفي على الفور ولففته حولها لأطفيء النار المشتعلة بجسدها والتي بدأت في الامساك بشعر رأسها وكانت تردد في لوعة وأسى : قل لها لقد سامحتها أخبرها بأني قد غفرت لها !

وجاء الخدم وأخمدوا الحريق وأرسلوا في طلب الطبيب الذي جاء عاجلاً وفحص الآنسة هافيشام فوجدها مازالت حية ولكنها فاقدة وعيها وبعد أن أسعفني الطبيب وضمد الحروق الشديدة التي لحقت بيدى سمح لي بالانصراف وطلب منى أن أواصل العناية بتلك الجروح حتى تلتئم .

وفي اليوم التالى ، عدت الى لندن كنت مازلت أعاني صدمة شديدة بعد أن وصلت الى بيتي في لندن وقام هربرت على الفور باعادة ربط جروحي بأربطة نظيفة وكنت قادراً على تحريك أصابع يدي اليمنى برغم الأربطة ، أما يدى اليسرى فقد كانت اصابتها بالغة ، لذلك فقد أمر الطبيب بأن تربط بعناية وأعلقها على صدرى برباط يتدلى من عنقى بالرغم من كل آلامي فقد كان على أن أقوم ببعض المهمات العاجلة ولكني أصبت بالحمى وارتفعت درجة حرارتى لذلك فقد أصر هربرت ، أن يقوم ببعض هذه المهام نيابة عني فقام بابلاع والده وبقية اقارب الانسة هافيشام ،بما حدث لها كما كتب رسالة إلى ستلا ، التي كانت آنئذ في باريس ، ليبلغها بالحادث وذلك بعد أن عرف عنوانها عن طريق مستر جاجرز .

وكانت هناك مهام أخرى لا بد أن أقوم بها بنفسى لذلك فما أن استعدت بعض قواى حتى ذهبت الى مقابلة مستر جاجرز وأطلعته على الرسالة التي حررتها الآنسة هافيشام ، فحرر على الفور شيكاً بمبلغ تسعمائة جنيه لصالح كلاريكار وأمر باستدعاء مستر كلاريكار ، لمقابلتي في مكتبه وبعد أن حضر واستلم منى الحصة المتبقية من العقد الذي أبرمته معه وعدنى مستر لاريكار بأن هربرت سيصبح على الفور شريكا كاملاً فى الشركة لكنه قال مشترطاً أن على د هربرت ، أن يسافر الى الشرق ، لينشيء ويدير أهم فروعنا الخارجية الأن أعمالنا الملاحية قد ازدهرت واتسع نطاقها وبعد انصراف كلاريكار ، التقى بى مستر جاجرز جانباً

وقال هامساً : بدون ذكر أسماء لقد حان الوقت الآن للزائر القادم من نيو ساوث ويلز ، لكى يغادر لندن ويرحل بعيداً ، لأن السلطات أوشكت أن تعرف مكانه وما أن وصلت إلى البيت ، حتى أبلغت هربرت، بما قاله مستر جاجرز ونظرنا نحن الاثنان إلى الأربطة الملفوفة حول يدي وشعرنا باليأس فأنا لا أستطيع الآن أن أمسك بمجداف القارب أو استخدامه

لكن هربرت ، قال وهو يقترح حلا للمشكلة: علينا أن نطلب المعونة من ستار توب وكان ستار توب ، هو ثالث الطلاب الذين كانوا يتعلمون لدى والد هربرت هو وأنا والعنكبوت الكريه درامل ،لكن ستار توب كان صديقاً أميناً يمكن الاعتماد عليه والثقة فيه وقد وافق على ما طلبناه منه بلا تردد .

وبحذر شديد وبعد التأكد من أن أحداً لا يتتبعنا قمنا بزيارة ماجويتش ، لاخباره بأن خطة الهروب أصبحت على وشك التنفيذ وأن عليه أن يستعد وقد صدم ماجويتش ، حين رأى الأربطة حول يدى وأخذ يهتم بجروحي وآلامى أكثر من اهتمامه بأية تفاصيل تتعلق بحطة الهروب وقال لى مواسياً : آه يا بني العزيز اني لا أهتم الا بمصلحتك وحدها أنت أعز عندي من ابن حقيقى خرج من صلبي بل أعز من ابنتي التي فقدتها حين كانت طفلة .

فقاطعته على الفور : ولكنك لم تحدثني من قبل بأنك قد أنجبت طفلة أين هي

تنهد بعمق واسترخي على مقعده وقال انها قصة رهيبة ولكن ما دمت أنت وهربرت تريدان أن تعرفا كل شيء عني فلا بأس أن أحكيها لكما ولكن اسمحا لي أولاً بأن أشعل غليوني.

وعبأ غليونه بالطباق الأسود الكرية الرائحة الذي كان يفضله وبدأ يحكى لقد نشأت دون أن أعرف لنفسي أبوين كنت أعرف فقط أني عشت أغلب حياتي في السجون كما أن أخرج منها حتى أعود اليها وفي وقت ما منذ زمن بعيد تزوجت من فتاة غجرية صغيرة في الحقيقة كانت نصف غجرية وأنجبت طفلة صغيرة لكن زوجتي هذه كانت حادة الطباع فخنقت احدى النساء بعد أن تأكدت من أنى كنت معجباً بها وتوقف برهة عن الكلام وبدا كما لو كان يتخيل هاتين المرأتين اللتين كانتا تتنافسان عليه منذ سنوات طويلة ثم استعاد ذهنه وواصل حديثه لقد غضبت مني زوجتي أشد الغضب وهددتني بأنها سوف تقتل طفلتنا انتقاماً مني ثم اختفت هي والطفلة قبل أن أفعل أي شيء وعلمت فيما بعد بالقبض عليها وتقديمها الى المحاكمة بتهمة قتل المرأة التي نافستها في حبي وكان مستر جاجرز ، هو المحامي الذي دافع عنها حتى حصل لها على حكم البراءة وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها اسمه يا له من محام بارع هذا الرجل وكان على أن أختفي حتى لا أضطر إلى الشهادة وهي شهادة كان يستحيل معها أن يحصل مستر جارجرز، على حكم البراءة والآن يا بيب ، هل عرفت لماذا اعتبرك الابن الوحيد لي ؟! .

ولحسن الحظ فان جروحي كانت قد جعلت وجهى شاحباً لدرجة لم يظهر معها أثر الشحوب الجديد الذي نجم من سماعي هذه القصة الرهيبة التي زلزلت أعماقي وجعلتني غير قادر على النطق بكلمة واحدة .

وأعاد ماجويتش ، اشعال غليونه من جديد وقال مواصلاً حديثه : ومع ذلك وبعد كل هذه السنين فما عدت أحمل كراهية تجاه زوجتى أو أي شخص آخر ولكني أكره من صميم قلبي شخصاً واحداً فقط هو نفس الشخص الذي رأيتني يابني وأنا أضربه في حفرة الطين بمستنقعات كنت حين رأيتني يا بني العزيز لأول مرة قال ذلك وهو يضغط على ركبتي ليذكرني بهذا الموقف فاضطررت للابتسام موافقاً رغم أن رأسي أوشكت أن تنفجر مما يدور فيها من أفكار وواصل ماجويتش حديثه : لقد استغلني هذا الرجل أسوأ استغلال كان يتظاهر بأنه جنتلمان وكان يضع خطط الجرائم ويطلب مني تنفيذها وبهذه الطريقة يظل هو آمناً بينما أواجه أنا المخاطر والنتائج وحدي ثم استولى هذا الرجل على معظم الأموال التي حصلنا عليها من جرائمنا وادعى انه هو الذي خطط بعقله للحصول على تلك الأموال وأنه صاحب الفضل الأول في ذلك أما جرأتى أو قوة عضلاتي فلا أهمية لها ويمكنه أن يستخدم أي شخص آخر بدلاً مني وعندما قبض علينا معاً ، شهد ضدي في المحاكمة بل وقال أني كنت أحرضه على ارتكاب الجرائم وقد صدقته المحكمة عندما قارنت بين مظهرى الاجرامي الرث ، ومظهره النظيف المتأنق ولهذا السبب حكموا بسجنى وأطلقوا سراحه فأقسمت أن أنتقم منه وعندما خرجت من السجن بحثت عنه في كل مكان وأخبرتني زوجته أنه متفرغ لخداع احدى النساء الثريات في منطقة كنت ، فذهبت إلى هناك فوراً لأتعقبه ولعلك تذكر يا بيب ، أنه كان في امكاني أن أستعيد حريتي بعد أن كسرت قيدى الحديدى مستعيناً بالمبرد

ولكني أمسكت به في المستنقعات حتى لا أمكنه من الهرب وأعيده الى السجن مرة أخرى اني لا أكره أحداً في الدنيا قدر كراهتى لهذا الرجل الذي يسمى كومبايسون وما أن سمع هربرت ، اسم و كومبايسون ، حتى انتفض مندهشاً ولكنه لزم الصمت ولم يتكلم وبعد أن انتهت زيارتنا لما جويتش ، وخرجنا إلى الشارع حتى بدأنا أنا وهربرت في الكلام في وقت واحد ولكن لأن صوتى كان أعلى من صوته فقد بدأت الكلام قبله وأبلغته بالمعلومات التي حصلت عليها من وميك، بخصوص قصة الخادمة ومولى ، وربطت بينها وبين القصة التي حكاها لنا ماجويتش ، وقلت في النهاية : اذن فان ماجوتش ، هو بعينه والد ستلا لكن ما هي الفائدة من اعلان ذلك ؟ فوافقني هربرت ، على هذا الاستنتاج وأقسمنا معاً على أن نحتفظ بهذا السر لأنفسنا ولا نخبر به أحداً ثم قال هربرت ولكن هذا الرجل الذي يسمى كومبايسون فقاطعته على الفور : انه هنا في لندن ولكن لابد من اخفاء هذا الأمر عن ماجويتش ، وهذا هو السبب في اني لم أشر اليك من قبل باسم كومبايسون ، بعد أن عرفته عن طريق مستر وميك وقال هربرت في النهاية : كنت أريد أن أقول لك أن كومبايسون هذا هو نفس الشخص الذي أحبته الآنسة هافيشام ، وكان سبباً في مأساتها .

الفصل الخامس عشر :أسرار من الماضي

كنت مازلت أعاني الصدمة الشديدة بعد أن وصلت الى بيتي في لندن وقام هربرت على الفور باعادة ربط جروحي بأربطة نظيفة وكنت قادراً على تحريك أصابع يدي اليمنى برغم الأربطة ، أما يدى اليسرى فقد كانت اصابتها بالغة ، لذلك فقد أمر الطبيب بأن تربط بعناية وأعلقها على صدرى برباط يتدلى من عنقى بالرغم من كل آلامي فقد كان على أن أقوم ببعض المهمات العاجلة ولكني أصبت بالحمى وارتفعت درجة حرارتى لذلك فقد أصر هربرت ، أن يقوم ببعض هذه المهام نيابة عني فقام با بلاع والده وبقية أقارب الانسة ها فيشام ، بما حدث لها كما كتب رسالة إلى ستلا ، التي كانت آنئذ في باريس ، ليبلغها بالحادث وذلك بعد أن عرف عنوانها عن طريق مستر جاجرز وكانت هناك مهام أخرى لا بد أن أقوم بها بنفسى لذلك فما أن استعدت بعض قواى حتى ذهبت الى مقابلة مستر جاجرز ، وأطلعته على الرسالة التي. حررتها الآنسة هافيشام ، فحرر على الفور شيكا بمبلغ تسعمائة جنيه لصالح كلاريكار ، وأمر باستدعاء مستر كلاريكار ، لمقابلتي في مكتبه وبعد أن حضر واستلم منى الحصة المتبقية من العقد الذي أبرمته معه وعدنى مستر لاريكار ، بأن هربرت سيصبح على الفور شريكاً كاملاً بالشركة لكنه قال مشترطاً : أن على هربرت ، أن يسافر الى الشرق ، لينشيء ويدير أهم فروعنا الخارجية الآن أعمالنا الملاحية قد ازدهرت واتسع نطاقها وبعد انصراف كلاريكار ، انتحى بى مستر جاجرز ، جانباً

وقال هامساً : بدون ذكر أسماء لقد حان الوقت الآن للزائر القادم من نيو ساوث ويلز ، لكى يغادر لندن ويرحل بعيداً ، لأن السلطات أوشكت أن تعرف مكانه وما أن وصلت إلى البيت ، حتى أبلغت هربرت ، بما قاله مستر جاجرز ونظرنا نحن الاثنان إلى الأربطة الملفوفة حول يدي وشعرنا باليأس فأنا لا أستطيع الآن أن أمسك بمجداف القارب أو استخدمه .

لكن هربرت ، قال وهو يقترح حلاً للمشكلة: علينا أن نطلب المعونة من ستار توب ،وكان ستار توب ، هو ثالث الطلاب الذين كانوا يتعلمون لدى والد هربرت هو وأنا والعنكبوت الكريه درامل ، ولكن ستار توب كان صديقاً أميناً يمكن الاعتماد عليه والثقة فيه وقد وافق على ما طلبناه منه بلا تردد .

وبحذر شديد وبعد التأكد من أن أحداً لا يتتبعنا قمنا بزيارة ماجويتش ، لاخباره بأن خطة الهروب أصبحت على وشك التنفيذ وأن عليه أن يستعد وقد صدم ماجويتش ، حين رأى الأربطة حول يدى وأخذ يهتم بجروحي وآلامى أكثر من اهتمامه بأية تفاصيل تتعلق بحطة الهروب وقال لى مواسياً : آه يا بني العزيز إني لا أهتم إلا بمصلحتك وحدها أنت أعز عندي من ان حقيقى خرج من صلبي بل أعز من ابنتي التي فقدتها حين كانت طفلة فقاطعته على الفور : ولكنك لم تحدثني من قبل أنك قد أنجبت طفلة أين هي الآن ؟! .

تنهد بعمق واسترخي على مقعده وقال انها قصة رهيبة ولكن ما دمت أنت وهربرت تريدان أن تعرفا كل شيء عني فلا بأس أن أحكيها لكما ولكن اسمحا لي أولاً بأن أشعل غليوني ! .

وعبأ غليونه بالطباق الأسود الكرية الرائحة الذي كان يفضله وبدأ يحكى لقد نشأت دون أن أعرف لنفسي أبوين كنت أعرف فقط أني عشت أغلب حياتي في السجون فما أن أخرج منها حتى أعود اليها وفي وقت ما منذ زمن بعيد تزوجت من فتاة غجرية صغيرة في الحقيقة كانت نصف غجرية وأنجبت طفلة صغيرة ولكن زوجني هذه كانت حادة الطباع فخنقت احدى النساء بعد أن تأكدت من انى كنت معجباً بها !

وتوقف برهة عن الكلام وبدا كما لو كان يتخيل هاتين المرأتين اللتين كانتا تتنافسان عليه منذ سنوات طويلة ثم استعاد ذهنه وواصل حديثه : لقد غضبت مني زوجتي أشد الغضب وهددتني بأنها سوف تقتل طفلتنا انتقاماً مني ثم اختفت هي والطفلة قبل أن أفعل أي شيء وعلمت فيما بعد بالقبض عليها وتقديمها إلى المحاكمة بتهمة قتل المرأة التي نافستها في حبي وكان مستر جاجرز ، هو المحامي الذي دافع عنها حتى حصل لها على حكم البراءة وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها اسمه يا له من محام بارع هذا الرجل وكان على أن أختفي حتى لا أضطر إلى الشهادة بأن زوجتي قد قتلت أيضاً طفلتنا الصغيرة وهي شهادة كان يستحيل معها أن يحصل مستر جارجرز، على حكم البراءة والآن يا بيب ، هل عرفت لماذا اعتبرك الابن الوحيد لي

ولحسن الحظ فان جروحي كانت قد جعلت وجهى شاحباً لدرجة لم يظهر معها أثر الشحوب الجديد الذي نجم من سماعي هذه القصة الرهيبة التي زلزلت أعماقي وجعلتني غير قادر على النطق بكلمة واحدة .

وأعاد ماجويتش ، اشعال غليونه من جديد وقال مواصيلا حديثه : ومع ذلك وبعد كل هذه السنين فما عدت أحمل كراهية تجاه زوجتى أو أي شخص آخر ولكني أكره من صميم قلبي شخصاً واحدا فقط هو نفس الشخص الذي رأيتني يابني وأنا أضربه في حفرة الطين بمستنقعات كنت حين رأيتني يا بني العزيز لأول مرة .

قال ذلك وهو يضغط على ركبتي ليذكرني بهذا الموقف فاضطررت للابتسام موافقاً رغم أن رأسي أوشكت أن تنفجر مما يدور فيها من أفكار وواصل ماجويتش حديثه : لقد استغلني هذا الرجل أسوأ استغلال كان يتظاهر بأنه جنتلمان وكان يضع خطط الجرائم ويطلب مني تنفيذها وبهذه الطريقة يظل هو آمناً بينما أواجه أنا المخاطر والنتائج وحدي ثم استولى هذا الرجل على معظم الأموال التي حصلنا عليها من جرائمنا وادعى أنه هو الذي خطط بعقله للحصول على تلك الأموال وأنه صاحب الفضل الأول في ذلك أما جرأتى أو قوة عضلاتي فلا أهمية لها ويمكنه أن يستخدم أي شخص آخر بدلاً مني وعندما قبض علينا معاً ، شهد ضدي في المحاكمة بل وقال أني كنت أحرضه على ارتكاب الجرائم وقد صدقته المحكمة عندما قارنت بين مظهرى الاجرامي الرث ، ومظهره النظيف المتأنق ولهذا السبب حكموا بسجنى وأطلقوا سراحه فأقسمت أن أنتقم منه وعندما خرجت من السجن سألت وبحثت عنه في كل مكان وأخبرتني زوجته أنه متفرغ لخداع احدى النساء الثريات في منطقة كنت ، فذهبت إلى هناك فوراً لأتعقبه

ولعلك تذكر يا بيب ، أنه كان في إمكاني أن أستعيد حريتي بعد أن كسرت قيدى الحديدى مستعيناً بالمبرد الذي أحضرته لي ولكني أمسكت به في المستنقعات حتى لا أمكنه من الهرب وأعيده إلى السجن مرة أخرى اني لا أكره أحداً في الدنيا قدر كراهتى لهذا الرجل الذي يسمى كومبايسون ،

وما أن سمع هربرت ، اسم كومبايسون، حتى انتفض مندهشاً ولكنه لزم الصمت ولم يتكلم وبعد أن انتهت زيارتنا لما جويتش ، وخرجنا إلى الشارع حتى بدأنا أنا وهربرت في الكلام في وقت واحد ولكن لأن صوتى كان أعلى من صوته فقد بدأت الكلام قبله وأبلغته بالمعلومات التي حصلت عليها من وميك ، بخصوص قصة الخادمة ومولى ، وربطت بينها وبين القصة التي حكاها لنا ماجويتش ، وقلت في النهاية : اذن فان ماجوتش ، هو بعينه والد ستلا.

: لكن ما الفائدة من اعلان ذلك ؟فوافقني هربرت ، على هذا الاستنتاج وأقسمنا معاً على أن نحتفظ بهذا السر لأنفسنا ولا نخبر به أحداً ثم قال هربرت ولكن هذا الرجل الذي يسمى كومبايسون فقاطعته على الفور : انه هنا في لندن ولكن لابد من اخفاء هذا الأمر عن ماجويتش ، وهذا هو السبب في اني لم أشر إليك من قبل باسم كومبايسون ، بعد أن عرفته عن طريق مستر وميك .

وقال هربرت في النهاية : كنت أريد أن أقول لك أن كومبايسون ، هذا هو نفس الشخص الذي أحبته الآنسة هانيشام ، وكان سببا في مأساتها .

نظر ماجويتشYالى في حزن وهو يحتضر ووضع يده على كتفي كاشارة منه لكي أبقى في مقعدي ولا أنصرف وفهمت من ذلك أن ماجويتش ، يحتضر ويعيش لحظاته الأخيرة وعندئذ انحنيت عليه وقلت هامساً وأنا أغالب دموعي ياعزيزى ماجويتش ، أريد أن أخبرك بسر عظيم قبل أن تغادر هذه الدنيا هل تستطيع أن تفهمني ؟.

فضغط على يدي بضعف ليؤكد أنه يستطيع أن يفهم فقلت : هل تذكر ابنتك التي كنت تعتقد أنها قتلت ؟.

فضغط على يدي مرة أخرى فواصلت الحديث : انها لم تقتل يا ماجويتش كما كنت تعتقد إنها تعيش الآن كسيدة محترمة في هذا المجتمع إنها جميلة جداً بل وأكثر النساء جمالاً وأنا أحبها من كل قلبي ! .

وكانت آخر حركة قام بها ماجويتش ، في هذا العالم أن سحب يدي بمنتهى الضعف وقربها من شفتيه وقبلها ثم أعادها إلى مكانها فوق صدره وازدادت الغشاوة على عينيه ومالت رأسه ومات ماجويتش

لم أخش مشاهدة الموت عن قرب إلى هذا الحد بل لعلى شعرت بالارتياح والهدوء والسلام ولاحت في ذهني فكرة الندم على أني لم أكن مخلصاً لصداقة الحقيقية التي يكنها لى جو جاجرى ، فلا أقل من أن أكون مخلصاً لذكرى ماجويتش ، ولن أنسى إلى الأبد مشاعر الحب الصادق وهو يقول لي : يابني العزيز.

الفصل السادس عشر: التجديف الى الحرية

قررنا تنفيذ خطة الهرب يوم الأربعاء وفي يومي الاثنين والثلاثاء ذهبت مع هربرت ، إلى بعض شركات الملاحة لمعرفة جداول إبحار السفن الأجنبية المتوجهة إلى الخارج يوم تنفيذ الخطة واتفقنا مع سفينة مسافرة إلى هامبورج بألمانيا، وشاهدنا تلك السفينة وهي راسية على الرصيف حتى نحفظ شكلها ونتعرف عليها بسهولة عند تنفيذ الخطة وتتلخص الخطة التي رسمناها في قيامنا بالتجديف حتى نصل بقاربنا إلى بيت كلارا وهناك ينتظرنا ماجويتش ، وبمجرد أن يرانا قادمين نحوه فعليه أن يهبط فوراً عبر الدرجات الحجرية المبنية على الشاطيء حتى يصل إلى قاربنا ويركب معنا وعندئذ نواصل التجديف حتى نصل إلى مكان مناسب لانتظار الباخرة المتجهة إلى هامبورج، لتلتقطني أنا و ماجويتش ، إلى ظهرها .

وقد وضعنا الخطة على أن يقوم كل من هربرت وستار توب ، بالتجديف ، وأن أمسك أنا بدفة القارب وبطبيعة الحال فاننا لم نخبر ستار توب بكل أبعاد القصة وانما أخبرناه فقط بأننا نريد أن نشركه معنا في أحد أسرارنا البسيطة التي وجدنا أنفسنا مضطرين للاشتراك فيها .

وبينما كنت أنهي اجراءات جوازات السفر بمكتب مستر جاجرز تولى هربرت ابلاغ كل من ستار توب ، وماجويتش ، بالاستعداد وفي حقيقة الأمر كنا أنا وهربرت في غاية الاضطراب وكنا نشعر بأننا موضوعان تحت المراقبة بالرغم من أننا لم نر أحداً يراقبنا أو يتتبع خطانا

ويوم الأربعاء الموعود كان أحد أيام شهر مارس التي يختلط فيها حر الصيف ببرد الشتاء لذلك فقد ارتدينا ملابس ثقيلة وأخذت معي حقيبة متوسطة الحجم بها بعض أدوات الزينة وبعض غيارات الملابس .

وفي تلك اللحظات لم أكن أدري ما هذا الذي أفعله ولا إلى أين أنا ذاهب كنت لا أفكر في أي شيء سوى توفير الأمان لماجويتش، وقبل أن أغادر شقتي ، ألقيت نظرة أخيرة على الحجرات فمن يدري ربما لن أرى هذه الحجرات بعد ذلك أبداً ؟ وكان ستار توب ، ينتظرنا بالقارب وبدأنا الابحار في الساعة الثامنة والنصف صباحاً وماهى إلا لحظات حتى أصبحنا جزءاً من الحركة النشيطة التي تدب على سطح النهر حيث توجد الكثير من الصنادل التي تحمل شحنات الفحم والعديد من البواخر القادمة والمغادرة وقوارب صيد الأسماك وقوارب أخرى مماثلة لقاربنا مملوءة بعديد من الناس الذين يقصدون النزهة أو يرغبون في ممارسة رياضة التجديف وكان علينا أن نجدف مع تيار المد حتى الساعة الثالثة عصراً ثم نستمر بعد ذلك في التجديف ضد التيار حتى موعد حلول الظلام وعندئذ نكون قدوصلنا منطقة تقع بين مقاطعة كنت ، ومقاطعة براساس ، حيث يتسع مجرى النهر وتقل فيه الحركة ثم نقضي الليل في احدى الحانات النائية حتى صباح اليوم التالي فنعود إلى القارب مرة أخرى لننتظر الباخرة المتوجهة إلى هامبورج ، التي اتفقنا معها والتي كان من المفروض أن تغادر لندن في الساعة التاسعة تماماً من صباح يوم الخميس .

وعندما كنا نجدف في طريقنا إلى بيت كلارا، رأينا ما جويتش ، وهو يهبط درجات السلم الحجرى متجهاً نحونا كان يرتدي عباءة واسعة ، ويحمل حقيبة سوداء من التيل وكان منظره يوحي بأنه أحد البحارة الذين يعملون بالسفن النهرية وأمسك هربرت ، بيده ليساعده في النزول إلى قاربنا .

وفي الحال، وضع ماجويتش ، ذراعه حول كتفى وقال : يا بني العزيز المخلص لقد تم كل شيء على نحو حسن شكراً لك شكراً لك ! .

فضغطت على يده وتلفت بعصبية لأنظر هنا وهناك حتى أتأكد من عدم وجود أي أحد كان يراقبه أو يتتبع خطاه وبدا كل شيء طبيعياً وعلى هذا واصلنا التجديف واشعل ماجويتش،غليونه وكان أقلنا اضطراباً وأهدانا أعصاباً .

وعندما أرخى الظلام سدوله رسونا بقاربنا قرب حانة فقيرة منعزلة تطل على الشاطيء وكان صاحب الحانة وزوجته يبدوان كما لو كانا من المتشردين ومع ذلك فقد قدما إلينا عشاء طيبا تناولناه على مائدة قرب المدفأة .

وكان كل من هربرت،وستار توب ، الذي عرف الآن كل أسرار خطة الهرب ، في غاية التعب والارهاق لقيامهما بالتجديف طول النهار لذلك فسرعان ما غط كل منهما في نوم ثقيل أما أنا فقد نمت في نفس الغرفة التي نام فيها ماجويتش ، كنت حريصاً على ألا يغيب عن نظرى ونمت نوماً متقطعاً رغم احساسى بالتعب والارهاق واستيقظت فزعاً عدة مرات أثناء الليل وكان يخيل إلى أني كنت اسمع أصوات رجاليتكلمون وفي أخر مرة سمعت بالفعل صوت رجلين يتحدثان عند النهر ، ففتحت النافذة بحذر

وطللت فرأيت رجلين يقومان بتفتيش قاربنا المربوط بالشاطىء وعندما لم يسفر التفتيش عن شيء ، انصرف الرجلان دون أن يلقيا أية نظرة على الحانة وخمنت أن الرجلين من مفتشي الجمارك .

وفي صباح اليوم التالى نهضنا مبكرين ، وعدنا إلى القارب وجدفنا حتى وصلنا إلى منطقة مستترة بجانب الشاطيء وهناك توقفنا لانتظار الباخرة المتوجهة إلى هامبورج وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، ظهر لنا دخان الباخرة وهي قادمة نحونا في الحال،بدأنا أنا وماجويتش نستعد وحمل كل منا حقيبته وسلمت على ستاز توب وعلى هربرت ، حيث لاحظت أن عينيه مثل عينى مغرورقتان بالدموع وبدأنا نجدف حتى نصل قرب الخط الذي تسير فيه الباخرة وفي نفس الوقت بالضبط بدا قارب آخر يتجه إلى نفس الاتجاه حتى اقترب تماماً من قاربنا وعلى هذا القارب رأينا رجالاً يجدفون ، ورجلاً يمسك بالدفة ، ورجلاً آخر يجلس بجواره يلتحف بعباءة واسعة ويصدر أوامره وتوجيهاته للرجل الذي يمسك بالدفة

ونادى علينا الرجل الذي يمسك بالدفة : معكم سجين مطرود من انجلترا ولا يجوز له العودة إليها وأنا آمر آبيل ماجويتش ، بأن يسلم نفسه بلا مقاومة وعليكم أن تساعدونا في اعتقاله وهنا كان القارب الآخر قد سد الطريق تماماً أمام قاربنا ومنعه من الحركة ثم امتدت الأيدي وأمسكت بقاربنا وسيطرت عليه تماماً وقد تسبب هذا الموقف في حدوث ارتباك على ظهر الباخرة حيث سمعنا أصواتاً تدعونا وأصواتاً أخرى تأمر بايقاف ماكينات الباخرة

وقد توقفت الماكينات بالفعل ولكن الباخرة مع ذلك ظلت تتقدم نحونا وفي هذه اللحظة انحنى الرجل الذي كان يوجه الدفة نحو قاربنا ، ومد يده وأمسك ماجويتش ، من كتفه لكن ما جويتش ، انحنى بدوره ومد يده ونزع العباءة عن الرجل الذي كان يصدر الأوامر والتوجيهات كان هو نفس السجين الهارب الثاني الذي قابلته في طفولتي في مستنقعات كنت كان كومبايسون ، بعينه وتبدي الفزع الشديد على وجه كومبايسون ، الذي تراجع إلى الخلف من شدة الخوف ولكن ماجويتش ، قفز من قاربنا إلى القارب الآخر لكى ينقض على كومبايسون ، لكن هذه الحركة العنيفة المباغتة أدت إلى اهتزاز القار بين بشدة وفي لحظة ، انقلب قاربنا بمن فيه وانتشلوني من الماء ورفعوني إلى القارب الآخر ثم انتشلوا هربرت ثم ستار توب ، ونظرت ملهوفا لأطمئن على ماجويتش ، فرأيته يسبح بضعف شديد ويقاوم الغرق فرفعه الرجال إلى قاربهم وقاموا بتكتيف يديه وقدمية وهكذا باءت خطة الهروب بفشل ذريع .

الفصل السابع عشر: يابني العزيز

كان ماجوتيش ، يتنفس بصعوبة بسبب جرح خطير في صدره وجرح آخر فى رأسه وقد أصيب بهما بعد أن صدمته الباخرة التي كنا ننوي الهرب على ظهرها إلى هامبورج واحتضنته بين ذراعي وبأنفاس لاهثة متقطعة أخذ يحكي لنا كيف هجم على كومبايسون وألقاه في الماء وكيف تصارع الرجلان إلى أن انتشلوه وحده دون أن يعرف ماذا حدث لكومبايسون وظللنا ندور بالقارب في آخر منطقة شوهد فيها .

كومبايسون ،حياً ولكن بلا جدوى فقد اختفى وظهرت جثته على الشاطيء فيما بعد وفي أثناء عودتنا بهذا القارب إلى لندن عرجنا إلى احدى الحانات المطلة على النهر لاستراحة قصيرة وطلبت من الضابط وهو نفس الرجل الذي كان يدير دفة القارب وأصدر إلينا أمراً بالتوقف بأن اشترى بعض الملابس لماجريتش ، بدلاً من ملابسه المبتلة فوافق الضابط بعد أن أفهمني أن جميع متعلقات السجين بما فيها نقوده وملابسه المبتلة ، لابد أن تسلم إلى السلطات في لندن .

ونظراً لعلمي بأن مثل هذا القرار سيحطم قلب ماجويتش ، لذلك فقد قررت ألا أبلغه به وجلست بجواره صامتاً وأمسكت بيده لعلى بذلك أشجعه على تحمل الألم ولكنه ابتسم بحنان وقال : يا بني العزيز كنت أعرف تماماً أن عودتي إلى انجلترا تعتبر مغامرة غير مأمونة العواقب ولكني كنت أريد أن أراك وقد رأيتك وسعدت بك

لهذا فانى راضي ومقتنع بأنك أصبحت قادراً على ان نعيش كجنتلمان، بدوني لكن لا يجوز لجنتلمان،مثلك أن تكون له علاقة بأمثالى ولكني أرجوك أن نحضر إلى قاعة المحكمة ، وتجلس في مكان أستطيع أن أراك فيه أنا لا أريد أكثر من ذلك .

بكيت من شدة التأثر وقلت باصرار : لا يا ماجويتش ، لن أتخلى عنك ماداموا يسمحون لي بالتردد عليك لزيارتك سأبقى دائماً إلى جانبك وسأكون مخلصاً لك كما كنت دائماً مخلصاً لي !

وشعرت بأن يده كانت ترتجف عندما كان يسمع كلامي هذا وابتسم في رضا ثم نام ولم تستغرق المحاكمة فترة طويلة ، فقد كانت القضية واضحة وتولى مستر جاجرز ، الدفاع عنه ، رغم أنه أبلغني بأن الأمر ميئوس منه ولا أمل فيه وقدم مستر جاجرز ، الى المحكمة بشهادة تؤكد أن ماجويتش ، قد تاب عن الإجرام منذ أن غادر انجلترا وأنه قد أصبح بالفعل شخصاً ناجحاً محترماً في نيو ساوث ويلز ، ولكن ما فائدة كل ذلك أمام الحقيقة الدامغة وهي أن على ماجريتش، أن يواجه عقوبة الإعدام شنقاً اذا عاد إلى انجلترا ؟ .

ولأن الجروح التي لحقت بماجويتش ، كانت بالغة وخطيرة خصوصاً بعد تلوثها بماء النهر ، فقد ساءت صحته وتدهورت قواه ومع ذلك فلم يكتسب عطف المحلفين الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً أمام صراحة القانون لذلك فقد قرروا أنه مذنب ! .

ولم يكن أمام القاضي سوى أن يصدر الحكم بالاعدام ولم يكن أمام ماجويتش سوى أن يقول للقاضي : سيدى ان الأعمار بيد الله وليس أمامي سوى أن أخضع لحكمك وأخذت أصلي وأتمنى من صميم قلبي أن يموت ماجويتش ، قبل أن ينفذوا فيه حكم الاعدام كما أخذت أكتب الالتمسات لكل شخص في السلطة يمكنه أن يقدر الموقف وكنت أعزز هذه الالتماسات بزيارات شخصية لهؤلاء المسئولين أستعطفهم فيها أن يعيدوا النظر في تنفيذ هذا الحكم وأحكي لهم قصة شهامة هذا الرجل ومدى حرصه على توبته وصلاحه ونتيجة لبعض الاتصالات ، فقد سمح لي بزيارة ماجوبتش ، كل يوم في مستشفى السجن كان راقداً على سريره بلا حراك يتنفس بصعوبة وغير قادر على الكلام ولكنه كان يعبر لي عن فرحته بزيارتي له بمجرد ضغطة خفيفة ضعيفة من يده على يدي و كانت حالته تتدهور يوماً وراء يوم .

وفي زيارتي العاشرة له لاحظت بعض التغير فقد برقت عيناه بمجرد أن رآني وقال هامساً بصوت خفيض مرتعش : يابني العزيز انك دائماً أول زائر يدخل مستشفى السجن قبل كل الزوار الآخرين فقلت له لإطمئنه وارفع معنوياته : انني أنتظر أمام البوابة لأكون أول من يدخل عندما يسمح بالدخول لا أريد أن أضيع ولو دقيقة واحدة من الوقت المسموح به .

فقال هامساً في ارتياح : شكراً لك يا بني العزيز بارك الله فيك انك لم تتخل عني أبداً.

فضغطت على يده ولزمت الصمت ، اذ لا يمكن أن أخبره بأني كنت قد دبرت خطة الهروب لكي أتخلى عنه بعد أن أوصله إلى مكان آمن وواصل همسه : من أعظم المواقف التي أقدرها لك انك أصبحت أكثر قرباً منى بعد أن اكتنفت حياتي تلك السحابة المظلمة مع أنك لم تكن قريباً منى إلى هذا الحد حينما كانت تسطع الشمس ان هذا عندي يساوي كل شيء .
وهنا بدأ صوته يضعف وخارت قواه تماماً وعلت الغشاوة والشحوب وجهه وعينيه وسحب يدي بضعف شديد ووضعها على صدره تحت يديه وارتسمت على شفتيه ابتسامة خافتة ودق جرس السجن معلناً انتهاء الوقت المحدد للزيارة في نفس الوقت الذي دخل فيه طبيب السجن إلى الحجرة فهز رأس ماجويتش ونظر إلى في حزن ووضع يده على كتفي كاشارة منه لكي أبقى في مقعدي ولا أنصرف وفهمت من ذلك أن ماجويتش ، يحتضر ويعيش لحظاته الأخيرة وعندئذ انحنيت عليه وقلت هامساً وأنا أغالب دموعي : يا عزيزى ماجويتش أريد أن أخبرك بسر عظيم قبل أن تغادر هذه الدنيا هل تستطيع أن تفهمني ؟! فضغط على يدي بضعف ليؤكد أنه يستطيع أن يفهم فقلت : هل تذكر ابنتك التي كنت تعتقد أنها قتلت ؟! .

فضغط على يدي مرة أخرى فواصلت الحديث : انها لم تقتل يا ماجويتش كما كنت تعتقد انها تعيش الآن كسيدة محترمة في هذا المجتمع انها جميلة جداً بل وأكثر النساء جمالاً وأنا أحبها من كل قلبي وكانت آخر حركة قام بها . ماجويتش ، في هذا العالم

أن سحب يدي بمنتهى الضعف وقربها من شفتيه وقبلها ثم أعادها إلى مكانها فوق صدره وازدادت الغشاوة على عينيه ومالت رأسه ومات ماجويتش .

لم أخش مشاهدة الموت عن قرب إلى هذا الحد بل لعلى شعرت بالارتياح والهدوء والسلام ولاحت في ذهني فكرة الندم على أني لم أكن مخلصاً للصداقة الحقيقية التي يكنها لى جو جاجرى فلا أقل من أن أكون مخلصاً لذكرى ماجويتش ولن أنسى إلى الأبد مشاعر الحب الصادق وهو يقول لي : يابني العزيز .

الفصل الثامن عشر: تغيرات كثيرة

أفقت إلى نفسي أخيرا وأخذت أفكر في أحوالى المالية السيئة ، التي ازدادت سوءاً اكثر من أي وقت مضى فأنا غارق في ديون باهظة وكان على أن أؤجر شقتي من الباطن لأنها أصبحت غالية التكاليف بالنسبة لي، خصوصاً بعد أن سافر هربرت ، إلى القاهرة في مصر ليدير فرع شركة كلاريكار هناك وقد وعدنى هربرت ، قبل سفره بأنه على استعداد أن يمنحنى وظيفة في هذا الفرع في أي وقت اريد .

وعلى أية حال فلم استطع اتخاذ أي قرار بشأن مستقبلي لأني سقطت مريضاً كنت أحس ببوادر المرض وهي تتسلل إلى ببطء ، إلى أن مات ماجويتش فعندئذ بدأ المرض يشتد وبدأت صحتي في الانهيار السريع وأصبت بحمى شديدة جعلتني أرقد على السرير مرتعشاً غير قادر على الحركة وبين حين وآخر ، كانت تنتابني نوبات من الهذيان فأهب من مرقدي وأغادر البيت متجولاً في الشوارع بلا هدف ولا وعي وفي يوم ما ، تنبهت إلى وجود شخصين بالقرب مني ينظران إلى بحزن وأنا راقد على رصيف الشارع بجوار منزلى فقلت لهما بصوت مبحوح من أنتما وماذا تريدان ؟فقال أحدهما : لقد جئنا يا سيدي للقبض عليك بسبب عجز عن الوفاء بالديون فصدرت منى آهة مؤلمة وحاولت القيام ولكني تهاويت وقلت لهما يأساً : كان بودي أن أذهب معكما ولكن مريض ولا أستطيع ابتعد الرجلان عني قليلاًثم أخذا يتجادلان معاً

ثم انصرفا وتحاملت على نفسي وعدت إلى البيت ورقدت على السرير مستسلماً للحمى وأضغاث الكوابيس ومن شدة حالات الهذيان التي كانت تنتابني كنت أتخيل جميع الناس الذين عرفتهم وقابلتهم في حياتي وكأنهم جالسون بجوار سريرى واحداً تلو الآخر وعندما كانت تختفي جميع الوجوه لا يبقى إلا وجه واحد دائماً وهو جو ٠

كنت أتخيل أنه جالس بجانبي ويبتسم ليشجعني ويمسح وجهي بقطعة من الاسفنج مبللة بماء بارد ليخفف الحرارة عن رأسي وأفقت في لحظة ، فرأيت أمامي نفس الوجه فقلت بضعف : هل أنت هنا يا جو ؟! فابتسمم بفرح وقال : نعم يا بيب .

فانخرطت على الفور في البكاء ليس هذيانا هذه المرة ، وانما هو بكاء صادق يعبر عن احساسى بالندم وقلت في لوعة جو يا صديقى العظيم أنا لا أستحق كل هذا العطف منك لقد أغضبتك وخنت صداقتنا اضربني يا جو ، لأني أستحق الضرب ولا تعطف على كل هذا العطف !

لكن جو ، كان في غاية السعادة لأني أفقت وبدأت استعيد وعيي واستطعت التعرف عليه فركع إلى جوار سريري وقال وعيناه مغرورقتان بالدموع : أنا وأنت كنا ومازلنا أصدقاء ياعزيزى بيب ، اهدأ يا عزيزى حتى تستعيد صحتك وأخذ جو ، يرعاني ويمرضني لمدة شهر كامل إلى أن بدأت أستعيد قواى بالتدريج وكنت أتخيل أيام الطفولة في مستنقعات كنت ، وقد عادت من جديد حين كان جو ، يقوم باطعامي ويرعى شئونى

وفي احدى الأمسيات حين لاحظ جو أني أصبحت في طريقي الى شفاء قريب أخبرنى بأن الآنسة هانيشام ، قد ماتت متأثرة بحروقها .وكما هو متوقع فقد ورثت ستلا ، كل أموالها وممتلكاتها .

وأخبرت جو بالتالي بما جرى في قصة حياتي وانهيار أمالي الكبرى واكتشافي أن المحسن الذي تبرع لي بكل أمواله لم يكن الآنسة هافيشام ، وانما هو آبيل ماجويتش وهنا قاطعني جو قائلاً : لقد سمعت بعض الأخبار عن ذلك وهذا لا يهمني بالمرة مثل هذه الأشياء لا أهمية لها بين الأصدقاء الحقيقيين وعلى الفور نهض جو ، ليعد لنا طعام العشاء وليضع حداً لهذا الموضوع وبعد أن أكتمل شفائى استيقظت ذات صباح فلم أجد جو، لقد رحل في الصباح الباكر وترك رسالة مليئة بالأخطاء الإملائية كتبها بنفسه بعد أن علمته بيدى ، القراءة والكتابة كانت رسالة وداع رقيقة ومرفق بها ايصال لقد دفعت الديون لقد قام بدفع الدين الذي كاد يقبض على بسبب عدم الوفاء به فى موعده ويدل الاتصال على أن جو ، هو الذي قام بتسديد هذا الدين والحقيقة اني كنت أظن بسبب شدة مرضى وغيابي عن الوعي أن الدائن صاحب الحق في هذا الدين قد توقف عن اتخاذ الاجراءات القضائية بسبب سوء صحتي ولم أكن اتصور أبدا أن جو ، قد دفع هذا الدين من ماله الخاص ارتخيت على المقعد وأنا أمسك بالايصال وبرسالة الوداع ودارت في ذهني ذكريات الماضي البعيد السعيد والهواء النظيف النقي الذي يهب من ناحية النهر ووجه بيدى ، الجميل الصبوح بيدى التي صادقتها ووثقت فيها

منذ أن حلت ببيتنا بعد حادث الهجوم على أختى وتذكرت كم كنت غبياً وأنانياً حين تناسيت كل تلك الأيام الجميلة الحلوة وبينما كنت غارقاً في فيض الذكريات هكذا لاحت في ذهني فكرة هائلة لماذا لا أبدأ حياة جديدة ولماذا لا اتزوج من بيدى فلأتقدم اليها لأطلب يدها وأعبر لها عن ندمي ولأخبرها بصدق أني قد جئت طائعاً وأني على استعداد لقبول أي شيء تراه بالنسبة لمستقبلي فلو أرادت أن أعمل مع جو ، في ورشة الحدادة فلن أمانع واذا رأت أن أحصل على وظيفة بالقرية أو في الريف فسوف أوافق وسأخبرها بالعرض الذي قدمه إلى هربرت ، قبل أن يسافر فاذا قبلت أن تصحبنى لتعيش معي في مصر ، فان ذلك سيكون ثمة سعادتي. وما أن انقضت ثلاثة أيام ، حتى أخذت عربة السفر متجها إلى كنت ، كنا في شهر يونيو وكان الجو صحواً والسماء زرقاء خالية من السحب وتطير العصافير بفرح فوق سنابل القمح الخضراء وعندما اقتربت من البيت لم اسمع دقات مطرقة جر ، المعهودة وعندما اقتربت من الورشة : فوجئت بأنها مغلقة فانتابني احساس عارم بالخوف أما البيت فلم يكن يبدو مهجوراً بل رأيت ستائر نظيفة بيضاء تتطاير من خلال النافذة المفتوحة بغرفة الجلوس وعندما نظرت إلى الداخل من خلال تلك النافذة رأيت بيدى و جو ، وهما يلوحان لي مرحبين بحضورى وأقبلا على يعانقانى بسعادة غامرة وقالت بيدى أنتذا أخيراً يا بيب يأعز صديق ليتك قد جئت يوم زفافي كانت حفلة طيبة لقد تزوجنا أنا وا جور وهنأتهما بحرارة وأنا أخفي خيبة أملى وقضيت معهما عدة ساعات قبل أن أرحل عائداً إلى لندن

وبعت كل ممتلكاتى ، وسويت معظم ديونى وسافرت إلى مصر وعملت موظفاً بفرع شركة كلاريكار،معاوناً لهربرت و كان هربرت قد نزوج ، كلارا ، فعشت معهما في نفس البيت وبالتدريج ، حققت الكثير من النجاح والتقدم ، فسددت كل ديونى وأصبحت أعيش حياة بهيجة طيبة معتمداً على نفسي وكنت أكتب الرسائل إلى جو وبيدى ، بين حين وآخر وبعد عدة سنوات أصبحت شريكاً كاملاً في شركة كلاريكار ولا يمكنني أن أقول ان شركتنا كانت تعتبر من الشركات الكبرى ولكننا حققنا أرباحاً كثيرة ، وكانت لنا سمعة طيبة وفي يوم ما ، لم يستطع كلاريكار، أن يستمر في الاحتفاظ بالسر الذي بيننا فاعترف لهربرت ، بأني أنا الذي دفعت حصة اشتراكه في رأس مال الشركة وأني أنا الذي أوصيت عليه ووظفته منذ البداية .

ومن أجل هذا ازداد حب هربرت ، لي وازداد تقديره لصنيعى الجميل .

الفصل التاسع عشر

وبعد احدى عشرة سنة عدت الى انجلترا مرة أخرى وفي أحد أيام ديسمبر بعد حلول الظلام بنحو ساعة كنت أدخل من خلال باب المطبخ في البيت القديم بمستنقعات كنت كان جو ، جالساً على مقعده بجوار المدفأة ، يدخن غليونه في هدوء وعلى نفس الكرسي الذي كنت أجلس عليه في طفولتي كان يجلس بيب الصغير.

قفز جو من مقعده واندفع نحوى يحتضنني ويقبلني وجاءت بيدى ، في عجل وأخذت تقبلني وتبكي من شدة الفرح بعودتي أما بيب ، الصغير فقد تراجع وهو يشعر بشيء من الخوف والدهشة ولكن لم تمض سوى أيام قليلة حتى أصبحت أنا وبيب ، الصغير أصدقاء أعزاء وكنت أصحبه للنزهة حول المستنقعات كما زرت معه مقابر الأسرة وتذكرت مشاعرى الخاصة عندما كنت في مثل سنه أزور هذا المكان في الماضي .

وعندما حل موعد رحيلى إلى لندن لاحظت أن بيب ، الصغير أصبح يحبني ويتمسك بي تماماً مثلما كنت أحي وأتمسك بأبيه جو ، في الماضي وظل بيب الصغير يلوح لي مودعاً إلى أن غبت عن نظره ولكن قبل أن أغادر ، عن لي أن أزور موقع بيت الآنسة هافيشام ، كان مجرد أطلال محترقة ولم يبق من البيت شيء سوى الحديقة انتي ملاتها الأعشاب وبقايا البوابة الحديدية .

وجلست على كتلة من الحجر واستسلمت الذكريات الماضي البعيد ذكريات ستلا ، كنت قد علمت بأنها عاشت حياة شقية غير سعيدة مع زوجها بنتلى درامل ، لدرجة أنها هجرته وكانت تعيش منفصلة عنه كما علمت أنه قد لقي مصرعه في حادثة ولكن دلك كان منذ عامين.

وظلت الذكريات تطوف بذهني وأنا أتجول بين أعشاب الحديقة وبين الأطلال المهجورة التي تهب عليها لفحات من برد الشتاء وفجأة لمحت طيف امرأة كانت تقف وحيدة متأملة في ضوء القمر فاقتربت منها لأعرف من هي وعندما سمعت وقع خطواتي التفتت نحوي ويالهول المفاجأة صحت وأنا اندفع نحوها ستلا . فقالت بنعومة بيب هل عرفتني؟ وأدرنا ظهرنا بذكرى الآنسة هافيشام لقد ذوى بريق شبابها ولكنها ما زالت محتفظة ببهاء وعظمة جمالها واختفت نظرة التعالي من عينيها وحلت محلها نظرات هادئة حزينة وسألتها : هل تحضرين إلى هنا دائماً يا ستلا ؟ فقالت : لا أني أحضر إلى هذا المكان لأول مرة بعد حياة طويلة ان هذا المكان هو آخر ممتلكاتي وقد بعته وجئت لألقي عليه نظرة الوداع الأخيرة ولكن قل لي هل مازلت تعيش في الخارج يا بيب. وأخبرتها بالنجاح الذي حققته وبأني أصبحت شريكا كاملاً في شركة كلاريكار، فبدت سعيدة لذلك وقالت وهي تبتسم في رقة كنت أفكر فيك أحيانا وجاء وقت كنت ألوم فيه نفسي لأني تجاهلت حبك الصادق أيام غرورى وجهلى ولكني الآن احتفظ لك بمكان عزيز في قلبي فأمسكت بيدها وقلت : ولكنك كنت دائماً في أعز مكان بقلبي ! .